
الحياة
الاجتماعية
في
مصر القديمة
هشام الجبالي
دار الهدى
للنشر والتوزيع

الحياة الاجتماعية
فى
مصر القديمة

إعــداد
هشام الجبالي

رسوم وجرافيك
مايكل موريس

رقم إيداع
2010/4132
I.S.B.N
978-977-451-035-9



دار الهدى للنشر و التوزيع
المنيا - ميدان الساعة
تليفاكس: ٠٨٦ ٢٣ ١٩ ٦٦٤   ت: ٠١٢ ٧٨ ٩٩ ١١٢
email: heshamgebaly4@yahoo.com
www.darelhoda.com


الحياة
الاجتماعية
فى
مصر القديمة

مقدمة

للحضـــارةِ الفرعونيَّة مكانةٌ خاصَّـــةٌ بين حضاراتِ العالـــمِ القَديمِ، ليس فقط لأَنَّها أكثـــرُ تلك الحضاراتِ آثارًا، وأوفرُها قدرةً على الحديثِ عن نفسِـــها بصوتٍ مسموعٍ، وقصِّ تفاصيلَ إسهاماتِها ومُنجزاتِها، ولكن لأنَّها الحضارةُ التي اســـتمرَّت قُرونًا طويلةً دون انقطـــاعٍ يُذكَرُ، والرَّافدُ الأساسيُّ الذي نَهَلَ منه الإنسانُ عبرَ مراحلِ تاريخِهِ أُسسَ وقَواعِدَ التَّقدُّمِ والنَّهضةِ في مختلفِ أوجهِ الحياة.

وكمـــا كان المصريـــونَ القدماءُ هم السَّـــابقونَ إلى اكتشافِ الكثيرِ من أســـرارِ الكونِ والحياةِ، وابتداعِ العَديدِ من المُبتكراتِ العلميَّةِ، كانوا أيضًا أولَّ من رسَّخَ الكثيرَ من المفاهيمِ الاجتماعيَّةِ، التي ظَلَّت سائدةً حتى وقتِنا الحاضرِ، فالحياةُ الأُسريَّةُ في مصرَ القديمةِ، بما تحتَويهِ من علاقاتٍ بين الزَّوجِ والزَّوجةِ، وبين الأبوينِ والأبناءِ، وبين الأسرةِ الصَّغيرةِ وامتداداتِها، تُعَدُّ نَموذجًا لما يَسعَى إنسانُ





العصـــرِ الحديثِ إلى تطبيقِهِ وضمانِ انتشـــارِهِ، كما أنَّ انتظامَ علاقاتِ العمـــلِ وتبادُلَ المنافـــعِ، وكفالةَ وجودِ واســـتمرارِ التَّنوُّعِ في التَّركيبـــةِ الاجتماعيَّةِ في مصرَ الفرعونيَّةِ دروسٌ يجبُ نَفـــضُ الغبارِ عنها، ووضعُهَا موضِعَ الفحصِ والتَّأمُّل.

لقد أسَّسَ المصريونَ القدماءُ عبرَ تاريخِهِم الطَّويلِ منظومةً متكاملةً للأعرافِ والتَّقاليدِ والقيمِ والأخلاقيَّاتِ التي أثبتَتِ التَّجارِبُ نجاحَهَا، وجدارَتَها بالاتِّباعِ والحفظِ. وإن كان الكثيرُ من الخبراتِ الحياتيَّةِ والمقوِّماتِ الثَّقافيَّةِ، فضلاً عن الكثيرِ من الألفاظِ الفرعونيَّةِ لا يزالُ باقيًا في مصرَ إلى اليومِ، فإنَّ الكثير أيضًا من منجزاتِ الحضارةِ الفرعونيَّةِ قد تســرَّبَ في شرايينِ الحضاراتِ الإنسانيَّةِ التَّاليةِ، لِتبقَى آثارُهُ جليَّةً في كافَّةِ مُنجزاتِ مدنيَّاتِ العالمِ المُعاصر.

إنَّ الإبحارَ بين ضَفَّتَي الوثائقِ التَّاريخيَّةِ الكاشــفةِ عن حقيقةِ «الحياةِ الاجتماعيَّةِ في مصرَ القديمةِ»، كفيلٌ بأنْ يجعَلَنا نميلُ إلى التَّأكيدِ على أنَّ جذورَ ما يسيرُ عليه العالــمُ اليومَ من تقاليد وأعرافٍ اجتماعيَّةِ، لا تزالُ دفينةَ التُّربةِ المصريَّــةِ، تَنتَظِرُ مَنْ يَكشِــفُ عنها، ويُخْضِعُها للتَّدقيــقِ والفحصِ، ويدفَعُنا إلى الإقرارِ – دونَ شُــبهَةِ تَحيُّزٍ أو إطلاقٍ لأحكامٍ مُســبقةٍ – بأنَّ الفضلَ في ترسيخِ تقاليــدَ وقيمِ مجتمعاتِنا المعاصرةِ، إنَّما يرجِعُ في حقيقتِهِ إلى الحضــارةِ المصريَّةِ القديمةِ، أكثرُ مِمَّا يَرجِعُ إلى كلِّ المؤثِّراتِ التَّاليةِ لها.

هشام الجبالي

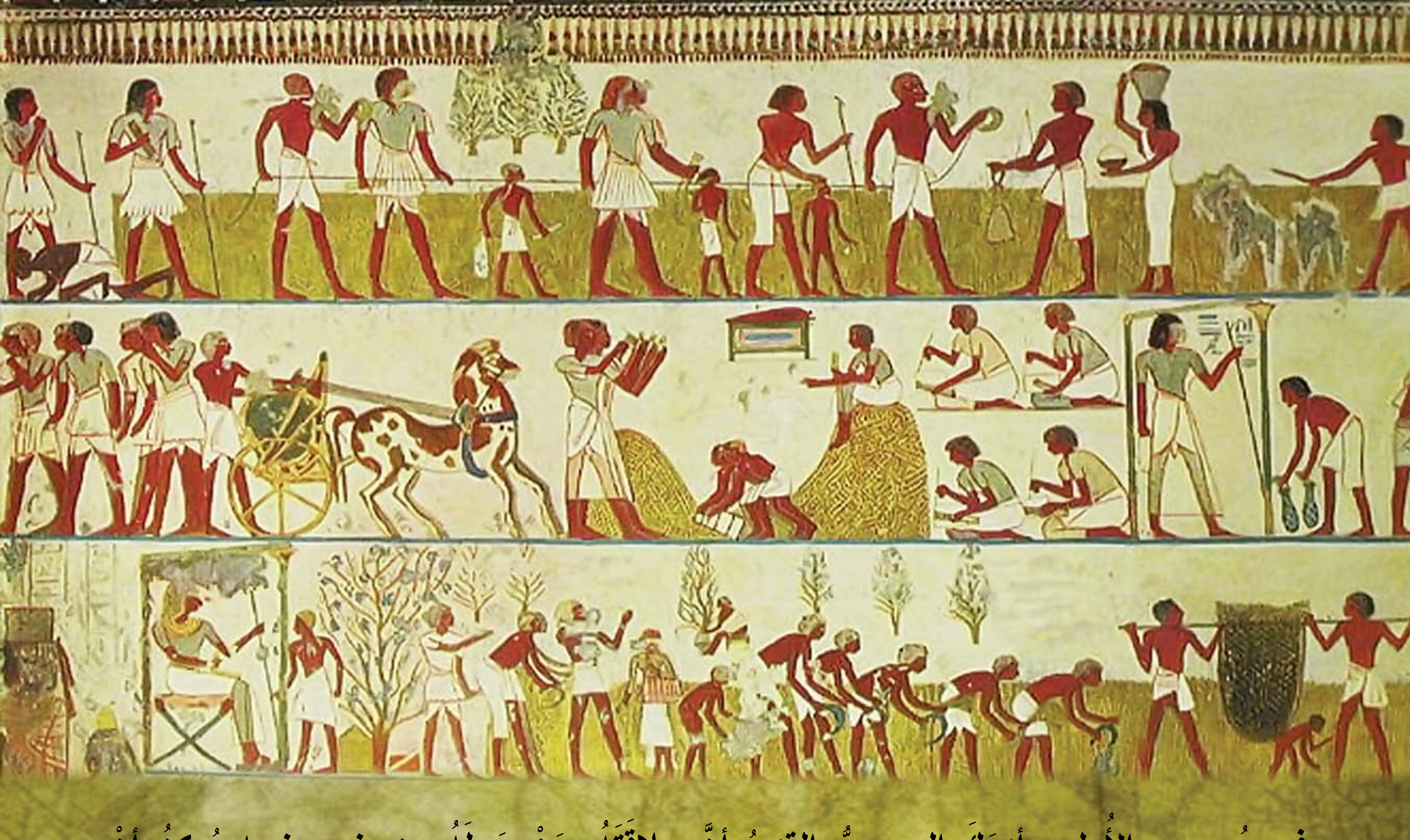




في عهودِ الإنسانِ الأُولى على سطحِ الأرضِ، لم يكنِ المصريُّ القديمُ بِمَعْزِلٍ عن شريعةِ الغابِ، التي حَكَمتِ الحياةَ في شَتَّى أرجاءِ العالمِ، والتي لم تَعتَرِفْ إلا بالقُوَّةِ العضليَّةِ مقياسًا للتَّميُّزِ، ولابدَّ أنَّهُ قد عَانَى طويلاً – كغيرِهِ من بني الإنسانِ – في تلكَ الحِقَبِ البدائيَّةِ، ولابدَّ أيضًا من تَسلُّلِ شيءٌ من قوانينِ الغَابِ، وبعضٌ من تقاليدِ تلكَ العصورِ المُوغلِةِ في القِدَمِ إلى ذاكرتِهِ الاجتماعيَّةِ، فَنقرَأُ في نُصوصِ الأهرامِ، بعد ذلك بآلافِ السِّنينَ، ما يَصفُ الملكَ ويُدَلِّلُ على قوتِهِ بأنَّهُ: "يَأخُذُ النساءَ من أزواجِهِمِ، بحسبِ رغبتِه".



لا يُمكِنُنَا معرفةَ متى وُلِدَتِ الأسرةُ بشكلِهَا المعروفِ لنا الآن، وإن كان من المنطِقيِّ القولُ بانجذابِ الرَّجلِ والمرأةِ إلى بعضِهما البعضِ منذُ أنْ وُجِدَا على سطحِ الأرضِ بفعلِ الغريزةِ، واهتمامِ كلٍّ منهما بشريكِهِ، وحرصِهِ على الاستئثارِ بِهِ، وحرصِهما سَويًّا على حمايةِ نتاجِ علاقتِهما، الأمرُ الذي يُؤدِّي في النِّهايةِ إلى تَشَكُّلِ الصُّورةِ المَعروفةِ للأسرةِ بيسرٍ وتلقائيَّةٍ، ودُونَ الحَاجةِ إلى خوضِ الكثيرِ من التَّجاربِ، للتَّوَصُّلِ إلى تلك العلاقاتِ الاجتماعيَّةِ التي تَقتَرِبُ من كونِهَا علاقاتٍ بديهيَّة.



في عُصورِهِ الأُولى، أدرَكَ المصريُّ القديمُ أنَّ علاقَتَهُ بمَنْ حَولَهُ من بني جنسِهِ يُمكنُ أنْ تَتَجاوَزَ المُنافسةَ على الفوزِ بما تُتيحُهُ البيئةُ المُشتركةُ من طَعامٍ ومَأوى إلى التَّعاونِ والتَّكامُلِ، فما يُمكِنُ أنْ يُصيبَهُ من فَائدةٍ بعملِهِ مُنفردًا، في ظلِّ حَالةٍ دائمةٍ من الصِّراعِ مع كلِّ مَنْ حولَهُ ضئيلٌ للغايةِ إذا ما قُورِنَ بما يُمكِنُ اكتِسَابُهُ من وراءِ العملِ الجماعيِّ المُنَظَّمِ، في ظلِّ أعرافٍ وتقاليدَ وقوانينَ تَضمنُ للجميعِ نيلَ حقوقٍ متوازنةٍ مع ما يُكلَّفونَ به من واجباتٍ. وهكذا، تَطَلَّعَ المصريُّ القديمُ في عُهودِهِ البدائيَّةِ إلى وضعِ وتَطويرِ نُظمٍ اجتماعيَّةٍ قادرةٍ على تَعظيمِ مَكاسبِهِ وتَحقيقِ رَفاهيتِهِ.



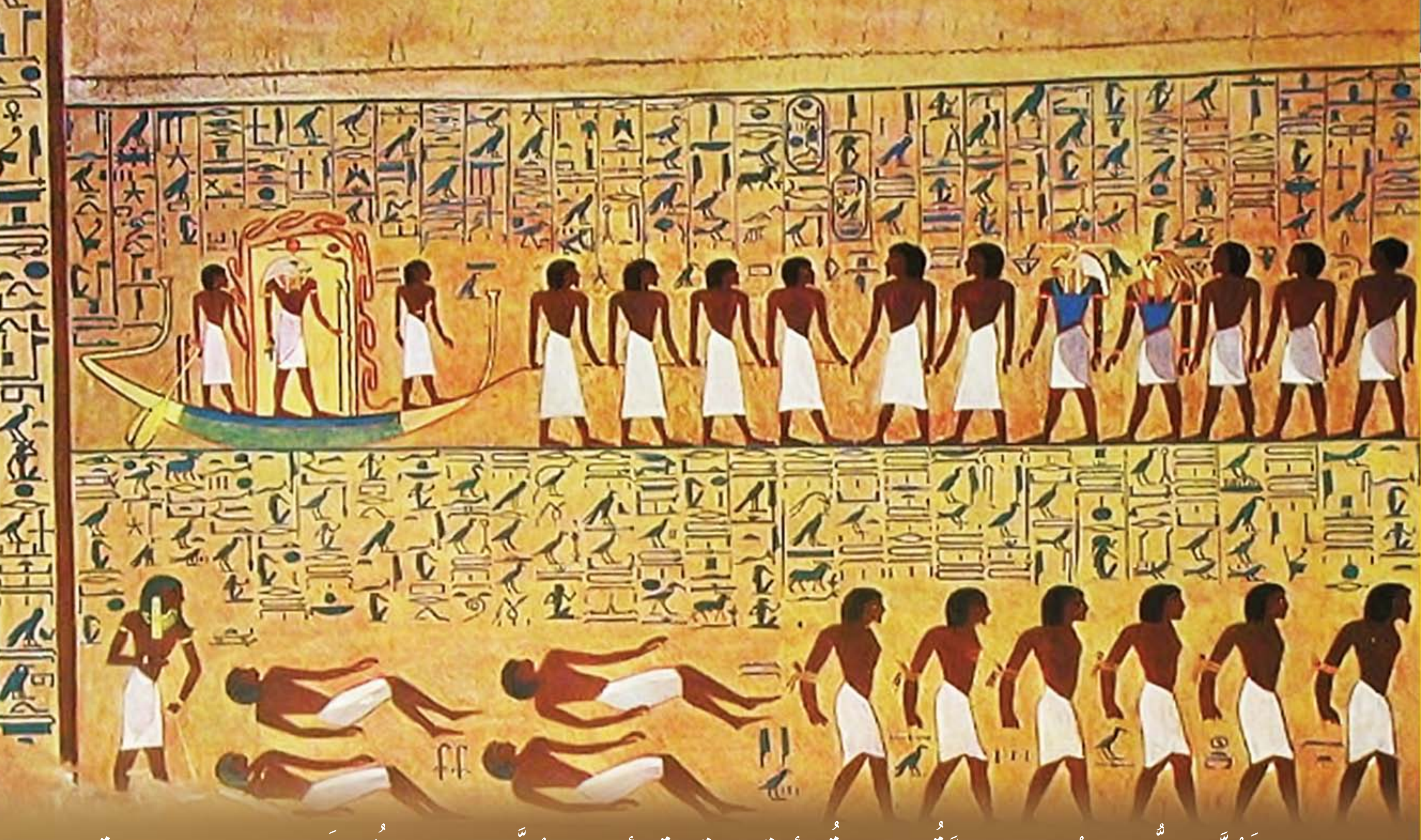
كان التَّمسُّكُ بمفهومِ القبيلةِ الذي لا يزالُ يُلقِي بظلالِهِ على الكثيرِ من المجتمعاتِ حتى اليومِ، والذي يَعتَمِدُ على صلةِ الدَّم كضمانةٍ لاستمرارِ التَّعاونِ، الخُطوةَ الأُولى التي قَطَعَها المصريُّ القديمُ على طَريقِ بناءِ نُظُمِهِ الاجتماعيَّةِ، غيرَ أنَّ تَمَسُّكَهُ بذلك المفهومِ الضَّيِّقِ للعلاقاتِ الاجتماعيَّةِ سَرعَانَ ما اختَفَى قبلَ بدءِ تاريخِهِ المُدَّونِ بآلافِ السِّنينَ، لِتَحلَّ مَحَلَّهُ نُظمٌ اجتماعيَّةٌ أكثرُ تَطوُّرًا وقدرةً على تحقيقِ صالحِ الفَردِ من خلالِ ضَمانِ تَحَقُّقِ صالحِ الجماعةِ، دونَ التَّوَقُّفِ طويلاً عند صِلاتِ الدَّمِ والانتماءِ القَبَلِي.

كان النِّظامُ القَبَلِيُّ قادرًا على أداءِ وظيفتِهِ في مجتمعٍ ضَيِّقٍ كثيرِ الارتحالِ، يعتَمدُ أفرادُهُ في تأمينِ وجودِهِم على صيدِ الحيواناتِ والتقاطِ ما تُخرِجُهُ الأرضُ من ثمارٍ، حيثُ لا مصالحَ مشتركةٌ فيما هو أبعدُ من مستوى القبيلةِ، ولكنْ على ضِفافِ نهرِ النِّيلِ، ومع تَعَلُّمِ الزِّراعَةِ التي تَعتَمِدُ في نجاحِها على تَوَافُرِ إمكانيَّةِ الاستغلالِ الأمثَلِ لمياهِ الفيضانِ، ومعَ الاستقرارِ وترسيخِ علاقاتِ الجِوارِ الدَّائمِ، لم يَعُدْ مفهومُ القَبيلةِ سِياجًا اجتماعيًّا ملائِمًا، وكان لابُدَّ من استبدالِهِ بمفاهيمِ المواطَنةِ والمشاركةِ في مصيرِ القريةِ والمدينةِ.



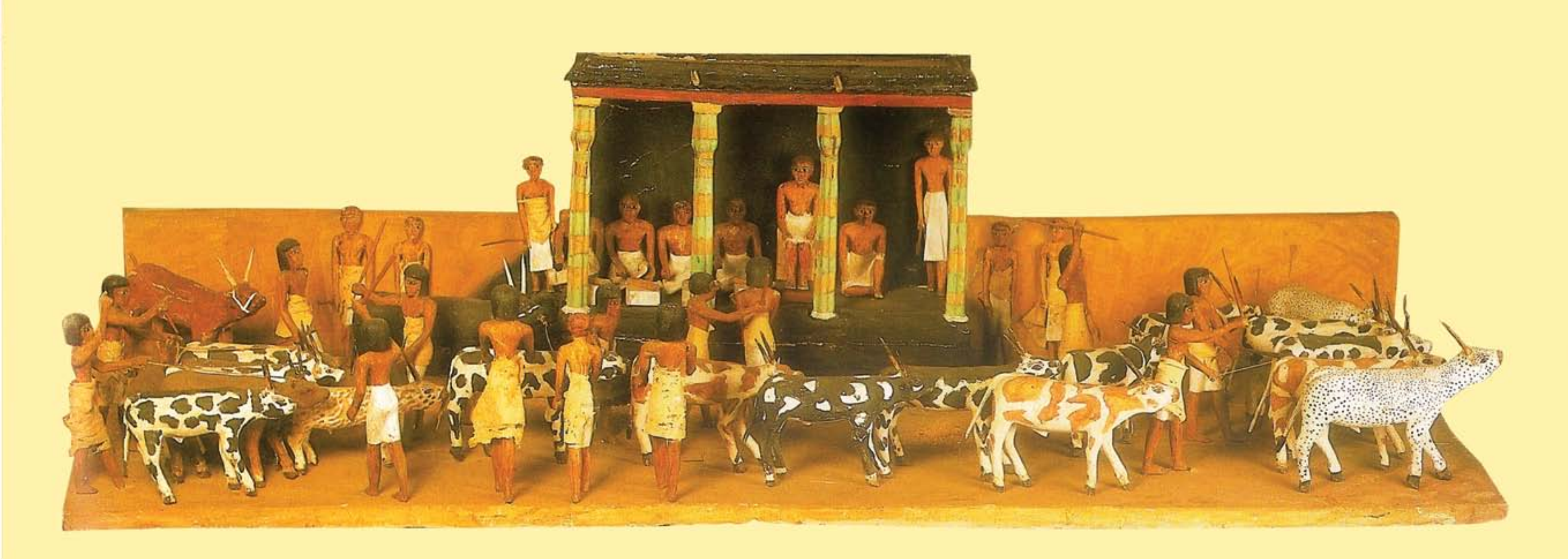
تَرَكَّزَ تواجدُ المصريينَ القُدماءِ على ضَفَّتَي نهرِ النِّيلِ على طُولِ الوادِي، وعلى ضِفافِ فُروعِهِ المتعدِّدةِ في الدِّلتا، كما تَواجَدَت أعدادٌ كبيرةٌ منهم على ضِفافِ مياهِ النَّهرِ التي كانت تَصِلُ إلى مُنخفضِ الفيومِ، بينما ظَلَّت مجموعاتٌ ضَئيلةٌ مُتفرِّقةٌ تَسكُنُ المناطِقَ الصَّحراويَّةَ في الشَّرقِ والغربِ. ويَدُلُّ ما وصَلَ إلينا من وثائقَ تاريخيَّةٍ على أنَّ الوادي كانَ يَضُمُّ أكثرَ من نصفِ عددِ السُّكَّانِ في أغلبِ فتراتِ التَّاريخِ الفرعوني، فيما يَتوزَّعُ ما تَبقَّى بين الدِّلتا ومنخفضِ الفيُّومِ والصَّحارَى.





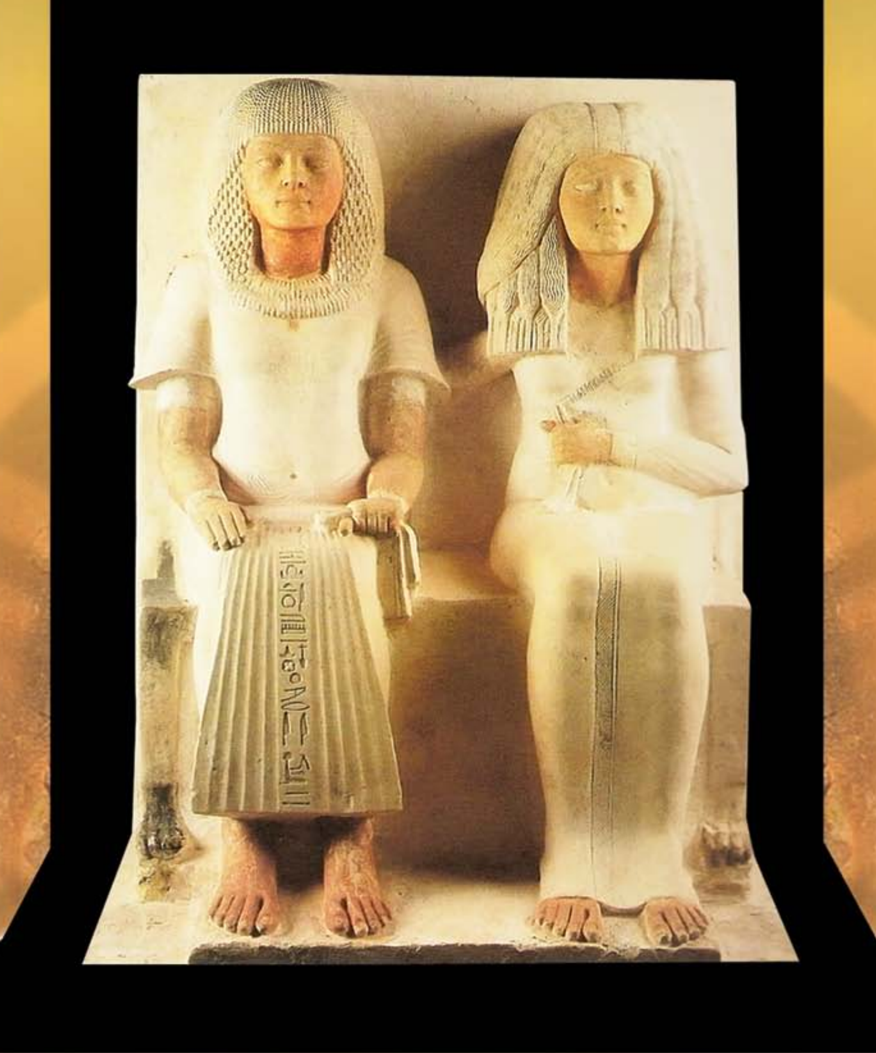
لم تَمُدَّنا النُّصوصُ المصريَّةُ القديمةُ بأرقامٍ دقيقةٍ لأعدادِ سُكَّانِ البلادِ طُوالَ عصورِ الفراعنةِ، غَيرَ أنَّنا نستطيعُ من خلالِ فحصِ النُّصوصِ ذاتِها استخلاصَ أرقامٍ تقريبيَّةٍ يُمكِنُ الاطمئنانُ إليها، إذ تُخبِرُنا الأبحاثُ الدِّيموجرافيَّةُ المُعتمَدةُ على تقديراتِ المحاصيلِ الزِّراعيِّةِ بأنَّ عددَ المصريينَ القدماءِ كان حَوَالي ثمانِمائةٍ وسِّتينَ ألفِ نسمةٍ في العصرِ العتيقِ – عصرِ الأسرتينِ الأولى والثَّانيةِ، وحَوَالي مليونٍ وسِتِّمائةِ ألفِ نسمةٍ في عصرِ الدُّولةِ القديمةِ، وحَوَالي مليونٍ وتِسعِمائةِ ألف نسمةٍ في عصرِ الدَّولةِ الوُسطى، وحَوَالي مليونينِ وثمانِمِائةِ ألفِ نسمةٍ في عصرِ الدَّولةِ الحديثةِ.

على الرَّغمِ من عدمِ عُثُورِنا – إلى اليومِ – على نتائِجِهِ، فإنَّنا على ثقةٍ تامَّةٍ من أنَّ المصريَّ القديمَ مارسَ التِّعدادَ المُنظَّمَ للإنسانِ والحيوانِ، والمسحَ الشَّاملَ للأراضي والممتلكاتِ، بغرضِ مساعدةِ الإدارةِ في تقدير الضَّرائبِ، والوقوفِ على حالةِ السُّكَّانِ. ومن الثَّابتِ في عصرِ الدَّولةِ الوسطى، تحضيرُ بطاقاتٍ إحصائيَّةٍ في مكتبِ الوزيرِ، لإجراءِ تعدادٍ شاملٍ في سنينَ بعينِها، إذ كان لِزامًا على كلِّ ربِّ أسرةٍ أنْ يُقيِّدَ في إحدى هذه البطاقاتِ عددَ أفرادِ أسرتِهِ ومواليِهِ، ويُقِرَّ بكلِّ ما يملكُ من حيواناتٍ، وجميعِ ما يحوزُ من أراضٍ وعقاراتٍ، قبلَ أن يُقْسِمَ يمينًا مُغلَّظةً أنَّهُ صادقٌ ومخلصٌ فيما دَوَّنَ من معلوماتٍ.





كان لاستقرارِ المصريِّ القديمِ على ضِفافِ نهرِ النِّيلِ أثرٌ بالغٌ في تحديدِ ملامحِ شخصيَّتِهِ، فهو قدريٌّ تَعتَمِدُ حياتُهُ على المياهِ التي يأتي بها الفيضانُ، والتي لا حيلةَ لهُ في تحديدِ مقدارِها، وهو مُسالمٌ لا حاجةَ له في استخدامِ العنفِ، للحصولِ على قوتِ يومِهِ الذي يُؤَمِّنُهُ له النَّهرُ، وهو مُتحفِّظٌ لا يميلُ إلى المغامرةِ، أو إلى التَّجديدِ الثَّوريِّ الذي لا طائِلَ من ورائِهِ، وهو ثَرِيٌّ يمتلكُ من النِّعمةِ ما يجعلُهُ يُبغِضُ التَّقَشُّفَ، ومن الوقتِ والموهبةِ ما يُؤَهِّلُهُ للتَّدَبُّرِ وقطعِ أشواطًا بعيدةً على طريقِ المدنيَّة.



من البديهيِّ أنَّ الأُسرَ المصريَّةَ القديمةَ لم تَكُنْ على قدمِ المُساواةِ من حيثُ الغِنى والاستقرارِ المادِّيِّ، ومن البَديهيِّ تَبعًا لذلك تَفاوتُ مستوياتِها الاجتماعيَّةِ، وتبايُنُ مستوى ما تَمَتَّعت بهِ من تَرابُطَ وتحضُّرٍ، غيرَ أنَّهُ يُمكِنُنا دائمًا الحكمَ على مستوى العلاقاتِ الأُسريَّةِ في مصرَ القديمةِ حُكمًا إيجابيًا، كما أنَّنا نستطيعُ أن نُؤَكِّدَ على تَمَتُّعِ أُسرِ المجتمعِ الفرعونيِّ – في جميعِ الحِقَبِ التَّاريخيَّةِ – بعلاقاتٍ صِحِّيَّةٍ متَطَوِّرةٍ، واستقرارٍ نَفسيٍّ ووجدانيٍّ قَلَّمَا كانت تَنعمُ بهِ أسرُ المجتمعاتِ المعاصرةِ لها.



مَثَّلَتِ الأسرةُ لدى المصريِّ القديمِ الأساسَ القويَّ الذي يحفظُ للمجتمعِ أمنَهُ واستقرارَهُ وتماسُكَهُ، فَشَدَّدَ الفراعنةُ على ضَرورةِ الزَّوَاجِ، ونَظَروا لغيرِ المتزوِّجينَ نظرةَ شكٍّ وريبةٍ، وعَبَّروا عن الزَّواجِ بما يمنَحُهُ أهميَّةً قُصوى، كالتَّعبيرِ عنه بـ«جرج بر» أي تأسيسُ بيتٍ وإقامةُ حياةٍ. وقد زخَرَتِ الأدبياتُ المصريَّةُ القديمةُ بصورِ الحَضِّ على الزَّواجِ والتَّأكيدِ على أهميَّتِهِ، فقالَ الأديبُ «عنخ شاشنقي» في القرنِ الخامسِ قبلَ الميلادِ:

«لا تَقْتَرِضْ مالاً بفائدةٍ لِتَتَباهَى بهِ، ولكن اقترضْ مالاً بفائدةٍ لِتَتَزَوَّج».



لــم يكــنُ هناك
سِــنٌّ معيَّنٌ للزَّواجِ في مصرَ
الفرعونيَّــةِ، غيــرَ أنَّ المصرييــن
القدماءَ كانوا يُشَــجِّعُونَ فكــرةَ الزَّواجِ
المُبكِّرِ، فكانَ الرجلُ عادةً ما يَتَزَوَّجُ في عمرِ
الخامســةَ عشــرةَ، وعادةً ما تَتَزَوَّجَ المرأةُ في
عمرِ الثَّانيةَ عشــرةَ، فالزَّواجُ المُبكِّرُ في المجتمعِ
الزِّراعيِّ الذي تَعني فيه كثرةُ الأولادِ وفرةً في الأيدي
العاملةِ أمــرٌ يجبُ التَّطلُّعُ إلــى تَحقيقِهِ. وها نحنُ
نَــرى الحكيمَ الفرعونيَّ «آني» ينصحُ أحدَ أبنائِهِ
بقولِهِ: «تخيَّرَ لك زوجةً وأنت شابٌّ.. عسى أنْ
تَلدَ لك ابنًا، فإنَّها إذا أنجَبَتْهُ لك وأنتَ شابٌّ،
كان من اليسيرِ عليك تَنشِــئَتُهُ التَّنشِئةَ
الصَّحيحــةَ.. طُوبى للمــرءِ كثيرِ
الأهلِ حين يُرتَجَى من أجلِ
أبنائِهِ».



كما هــو مُعتادٌ فــي مصرَ، وفي الكثيرِ مــن دولِ العالمِ حتى اليومِ، كان التَّزاوُجُ بين الأقاربِ في بلادِ الفراعنةِ من الأمورِ المُســتحبَّةِ والواسعةِ الانتشــارِ، فعلــى الرَّغمِ من مســاوئِ ذلــك النَّــوعِ من الزَّواجِ، وتَسبُّبِهِ في إضعافِ النَّســلِ، فإنَّــهُ كانَ ولا يزالُ ضمانًا لجودةِ الأصلِ، وتأكيدًا لتقاربِ المستوى الاجتماعيِّ وتناغــمِ العــاداتِ والطِّباعِ، علاوةً علــى كونِهِ وســيلةً من وســائلِ تقويــةِ صِلاتِ الرَّحِمِ، وحفظِ ثَرواتِ الأجدادِ بتداولِها في نطاقِ الأســرةِ، وعدمِ انتقالِها لغيــرِ الأبناءِ والأحفادِ.



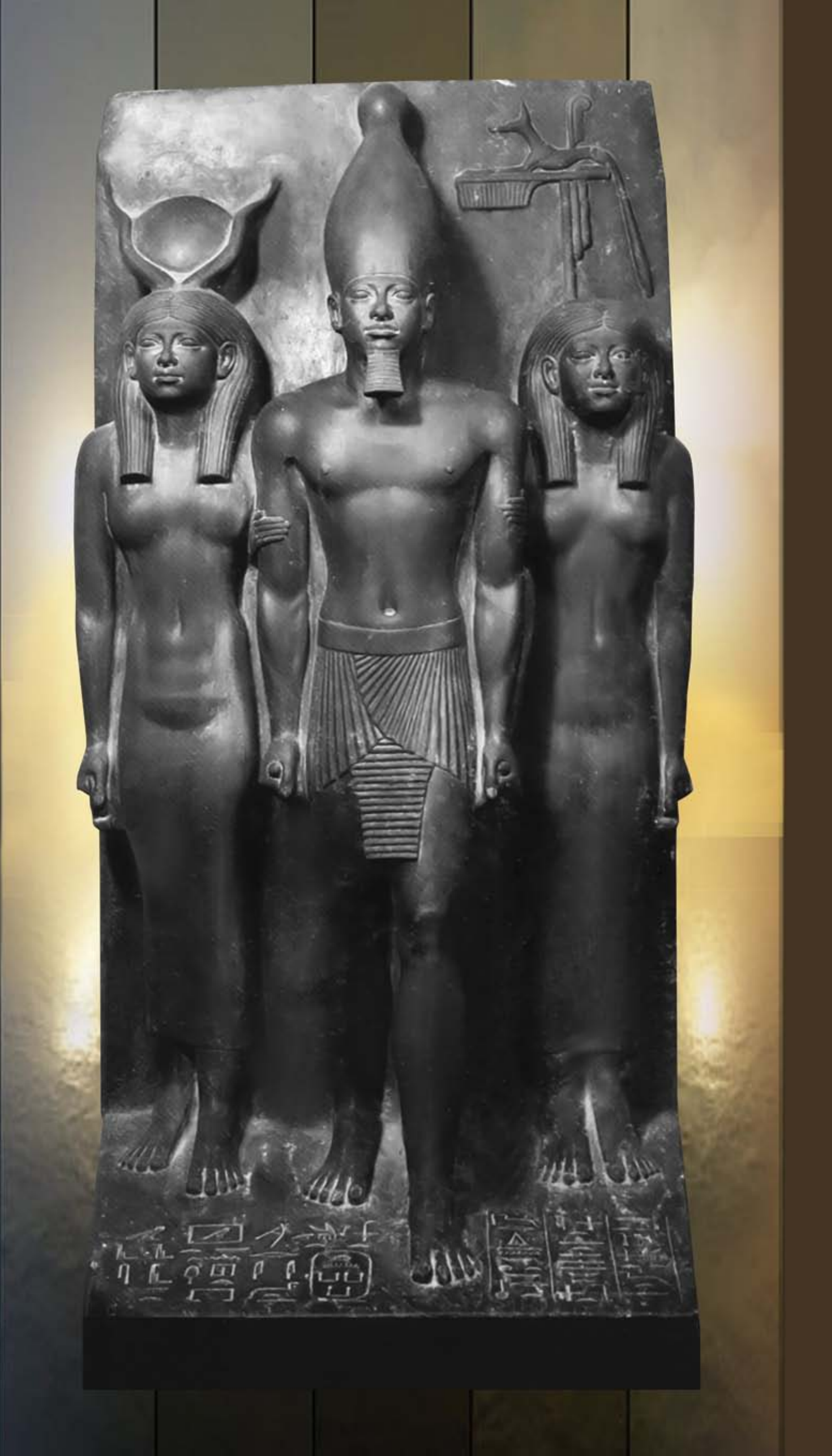


يُمكنُنَا أنْ نَتبيَّنَ من عقودِ الزَّواجِ التي عَثُرْنا عليهــا أنَّ وليَّ أمرِ العــروسِ في مصرَ القديمةِ كان ينوبُ عنها في كتابةِ العقدِ، وأنَّه قد سُمِحَ للعروسِ أن تُزوِّجَ نفسَها في بعضِ الحالاتِ، خاصَّةً إذا ما كانت ثيِّبًــا، وكان أهمُّ إجراءاتِ عقـدِ القِرَانِ يتمُّ شــفاهةً بصِيَغِ الإيجابِ والقَبولِ أمامَ الشُّــهودِ، فيقولُ العريسُ "اتَّخذْتُكِ زوجةً"، وتقــولُ العــروسُ: "اتَّخذْتُــكَ زوجًــا"، كما كان عقـدُ القِرانِ من المناسباتِ الاجتماعيَّةِ التي تَحظَى باهتمامٍ بالغٍ، حيثُ يتَلَقَّى العروســانِ الهدايا من الأقاربِ، وســطَ الاحتفــالِ بالموســيقى والغناءِ والرَّقصِ وذبحِ الذَّبائِحِ، قبلَ أن تُــزفَّ العروسُ إلى بيتِ الزَّوجيَّةِ.



إذا ما كانتِ العروسُ ذاتَ غِنى، أو إذا ما أهدَاها والِدُها مالاً أو عقارًا بمناسبةِ زفافِها، فإنَّها كانت تذهبُ لبيتِ زوجِها بممتلكاتِها الشَّخصيَّةِ، التي تَظَلُّ تحتَ تصرُّفِها الشَّخصيِّ، بَعيدًا عن الذِّمَّةِ الماليَّةِ للزَّوجِ، بينما يكونُ من حقِّها كزوجةٍ، وشريكةٍ للزوجِ في تَحَمُّلِ تَبعاتِ المسئوليَّةِ المشتركةِ، وفي السَّعي لتحقيقِ رفاهيةِ الأسرةِ للحصولِ على ثلثِ الثَّروةِ التي يَجمَعانِها سويًّا خلالَ حياتِهِما الزَّوجيَّةِ، إذا ما حَدَثَ شِقاقٌ، ووقَعَ الطَّلاقُ على غيرِ رغبتِها، ودون أن تَكُونَ قد اقتَرَفَت ذنبًا يُوجِبُ وقُوعَه.





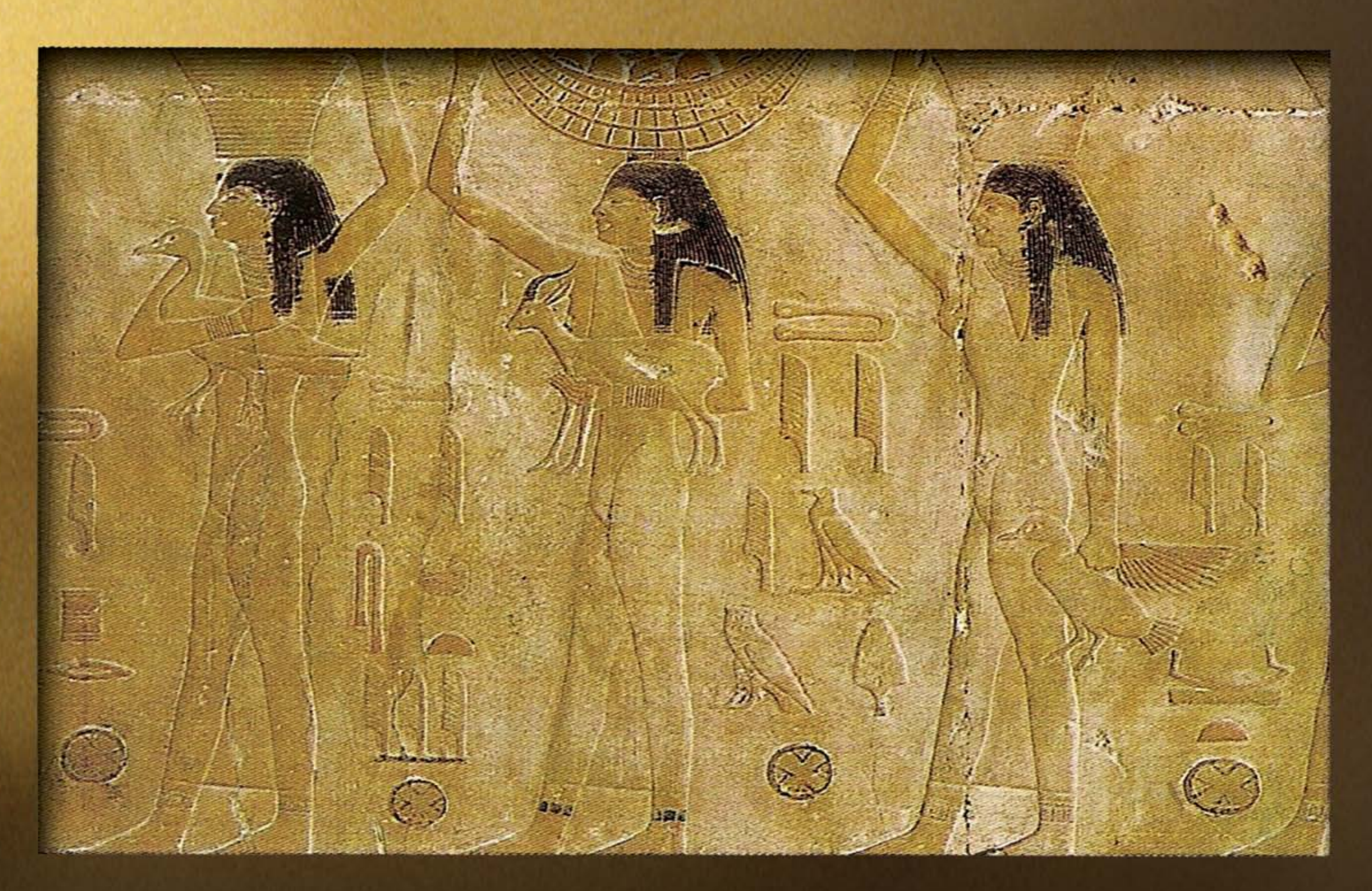


اهتمَّ المصريُّ القديمُ بالتَّأكيدِ على ترابطِ واستقرارِ أسرتِهِ، ووَضَعَ مــن التَّقاليدِ والعاداتِ والنُّظــمِ المُتَّبَعــةِ ما هو قادرٌ على إنجاحِ الحياةِ الأســريَّةِ، التي اعتَمَدَت على غَلبةِ مبدأِ المشاركةِ والتَّكاملِ بين الزَّوجِ والزَّوجةِ، فالزَّوجُ "نب" أي ســيدٌ ووليُّ أمــرٍ، ولكنَّه في نفــسِ الوقت "ســن" أي أخٌ وشقيقٌ لا سبيلَ إلى الاكتمالِ إلا به، والزَّوجةُ "ســت" أي سيِّدة، و"حمة" أي حرمةٌ لا تحِلُّ لغيرِ زوجِها، وهي أيضًا "حمسة" أي رفيقةٌ ونديمةٌ، و"نبــت بــر" أي ربــةُ بيتٍ تُصلحُ بحكمتِها كلَّ شُئونِه.



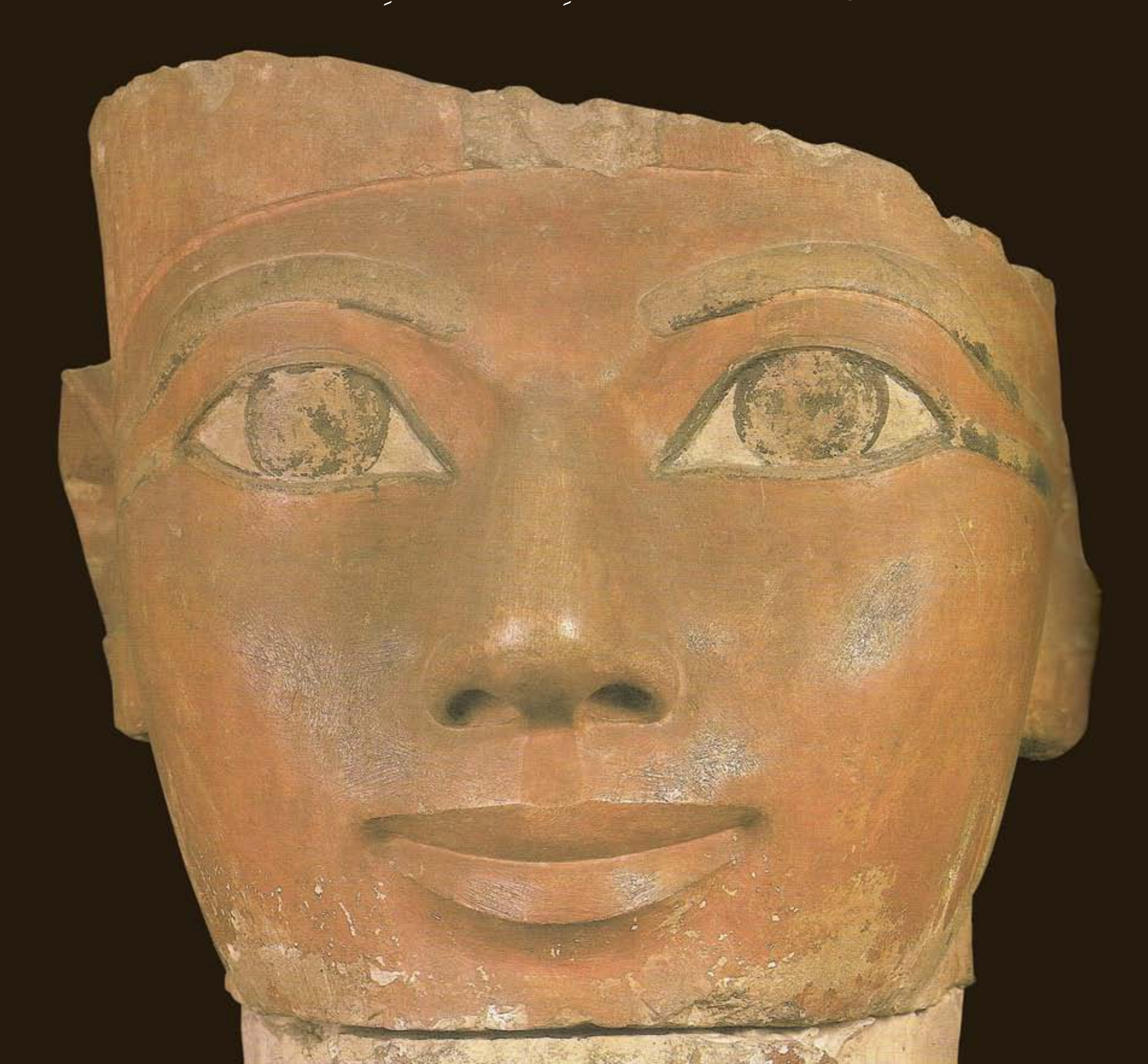


لم تَمنعِ التَّقاليدُ المُحافِظَةُ المصريَّ القديمَ من إظهارِ حُبِّهِ وتَعلُّقِه بزوجتِهِ، ولم تَحُلْ بينَهُ وبين أن يَصِفَها بكونِها محبوبتَهُ المستقِرَّةَ في فُؤادِهِ، بل إنَّ التَّقاليدَ المَلكيَّةَ ذاتَها لم تَحُلْ بين الملوكِ وبين أن يَصِفُوا المَلِكاتِ بنعوتٍ تفيضُ رِقَّةً وعزوبةً، كوصفهنَّ بذواتِ الجاذبيَّةِ، وذواتِ الطَّلَّةِ البهيَّةِ، وسميراتِ المُلوكِ، والرَّفيقاتِ المستَقِرَّاتِ في أفئدتِهم، كذلك لم تَأبَ التَّقاليدُ المصريَّةُ أن تُظهرَ الزَّوجَةُ حُبَّها لزوجِها وتَعلُّقَها بهِ، قولاً وفعلاً، كأنْ يُصَوِّرُها الفنَّانُ الفرعونيُّ وهي تَحتَضِنُ خصرَ زوجِها، أو هي تقومُ على شُئُونِهِ، فَتُطْعِمُهُ أو تُعَطِّرُهُ بيدْيهَا، أو تُقدِّمُ له الورود.

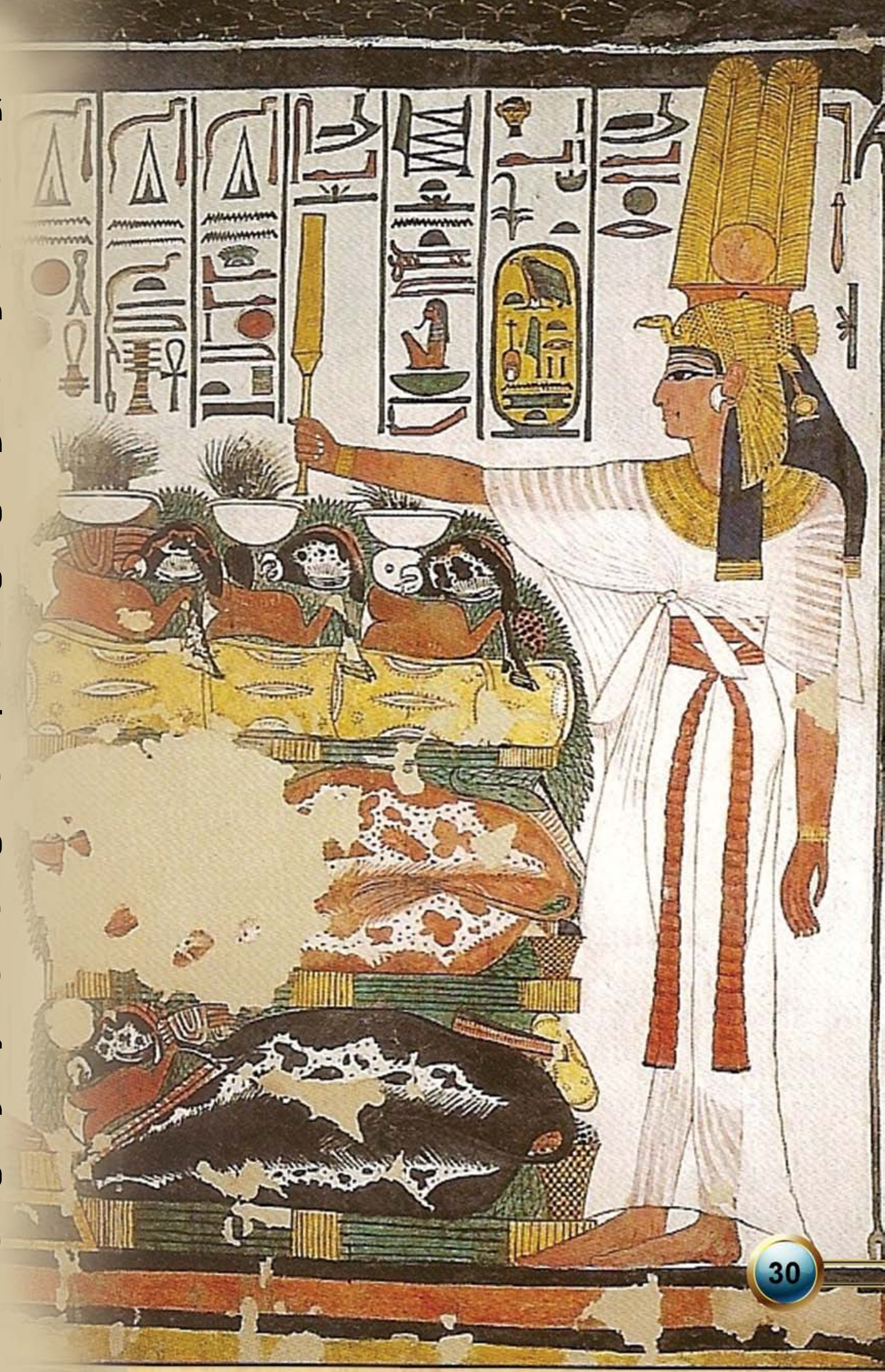


تَعدَّدت واجباتُ المرأةِ المصريَّةِ القديمةِ في منزلِ الزَّوجيَّةِ، فهي التي تَقُومُ على رعايةِ الصِّغارِ وقضاءِ حاجاتِهِم، وهي مَنْ تُؤَدِّي أعمالَ التَّنظيفِ وإعدادِ الطَّعامِ، وهي كذلك مَنْ تَغزلُ الخيوطَ وتنسِجُ الملابسَ لجميعِ أفرادِ أسرتِها، كما أنَّها مَنْ تَذهَبُ إلى الأسواقِ لقضاءِ مُتطلَّباتِ منزلِها، غيرَ أنَّ كلَّ هذه المهامِ المُلقاةِ على عاتقِ نساءِ الفراعنةِ لم تمنعِ القادراتِ والرَّاغباتِ من الخروجِ لمزاولةِ العمل العامِّ، في مجتمعٍ لم يُنكِرْ عليهنَّ ذلك، ولم يرَ فيه ما يُنقِصُ من قدرهِنَّ، أو يَحُطُّ من عفافهِنَّ وطُهرِهِنَّ.

شارَكَتِ المرأةُ بدورٍ بارزٍ في بناءِ صرحِ الحضارةِ المصريَّةِ القديمةِ، ومَارَسَتْ من الأعمالِ العامَّةِ ما لا يَتَعارضُ مع تقاليدِ المجتمعِ الفرعونيِّ، الذي أتاحَ لها أن تعملَ لِتَعُولَ نفسَها، أو لِتُقَدِّمَ يدَ المساعدةِ لزوجِها وأبنائِها، كما مكَّنَها دائمًا من إثباتِ تَميُّزِها وتحقيقِ طموحاتِها بما يتلاءَمُ مع قدراتِها، فَتَقلَّدتِ الكثيرَ من المناصبِ الدِّينيَّةِ والمدنيَّةِ الرَّفيعةِ، ونُسِبَ إليها الاشتراكُ في بعضِ شئونِ القضاءِ وأعمالِ الوزارةِ، إلى جانبِ كونِها أميرةً ومَلِكَةً، بل وحاكمةً منفردةً تمكَّنتْ بضعَ مرَّاتٍ من الجُلوسِ على عرشِ الفراعنة.



تَمَيَّـزتِ المـرأةُ فـي المجتمـعِ الفرعونـيِّ بمكانةٍ لـم تحظَ بها الكثيراتُ في المجتمعاتِ القديمةِ، بل والحديثةِ أيضًـا، فبينما كانتِ المجتمعاتُ البدويَّةُ تَنظُرُ لها نظرةً دونيَّـةً تمنَعُهَا من التَّملُّكِ والإرثِ وإبـرامِ العقـودِ وإدارةِ الأعمالِ والمثـولِ أمامَ القضـاءِ، وكانتِ المجتمعـاتُ الزِّراعيَّةُ المُتحضِّرَةُ – كالمجتمـعِ البابلِيِّ – لا تَمنَحُهَا الحقَّ في اختيارِ الزَّوجِ أو تطليقِهِ، وتَنتقلُ فيه الولايةُ عليها من الأبِ إلى الأخِ أو الزَّوجِ، كان المجتمعُ المصـريُّ القديـمُ يتعامـلُ معها كشريكٍ مسـاوٍ للرَّجلِ، لها ما لهُ من حقـوقٍ، وعليها ما عليه من واجبـاتٍ، في إطارٍ مـن التَّقاليدِ الصَّارمةِ، وقيمِ العدالةِ المستقرَّة.



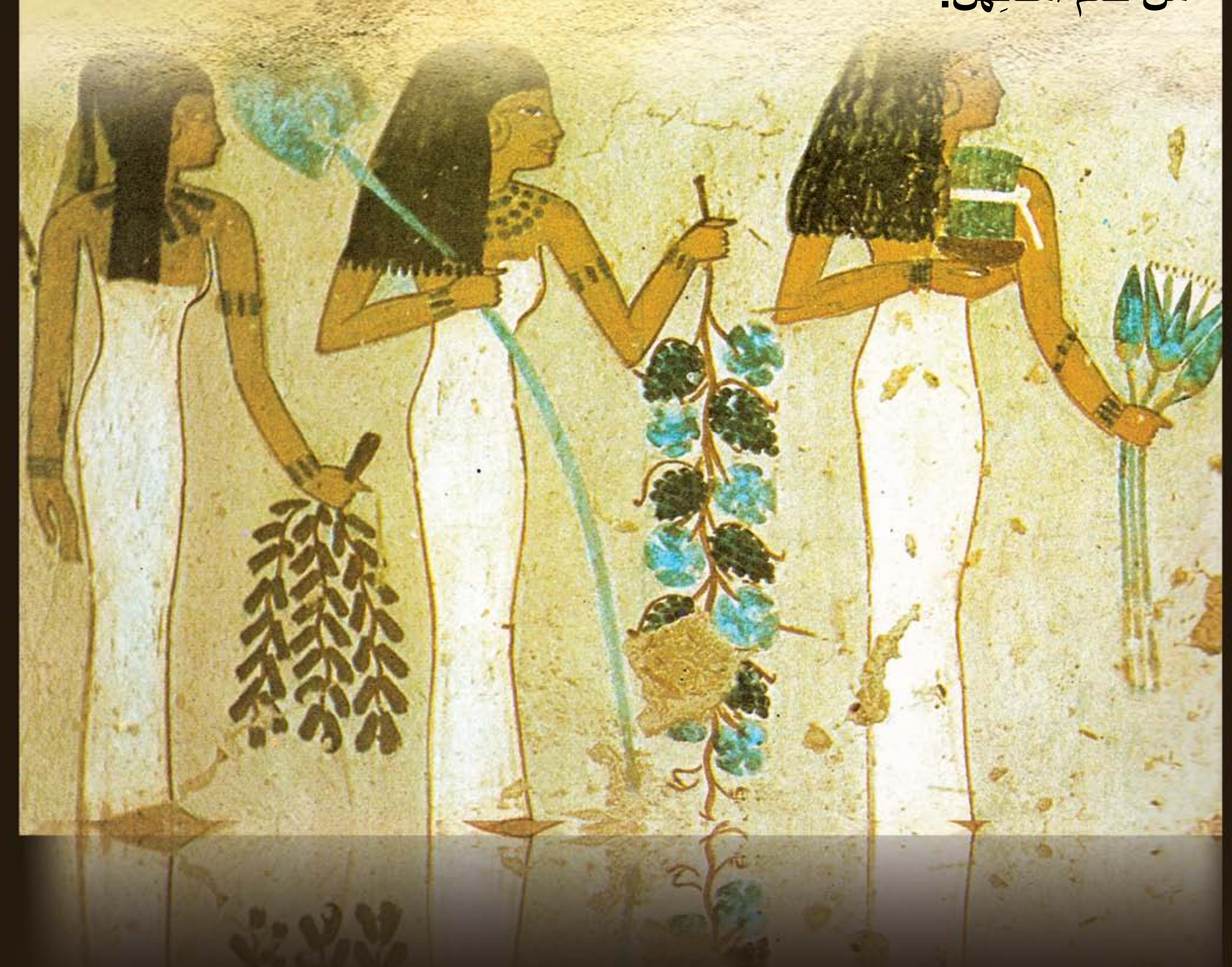


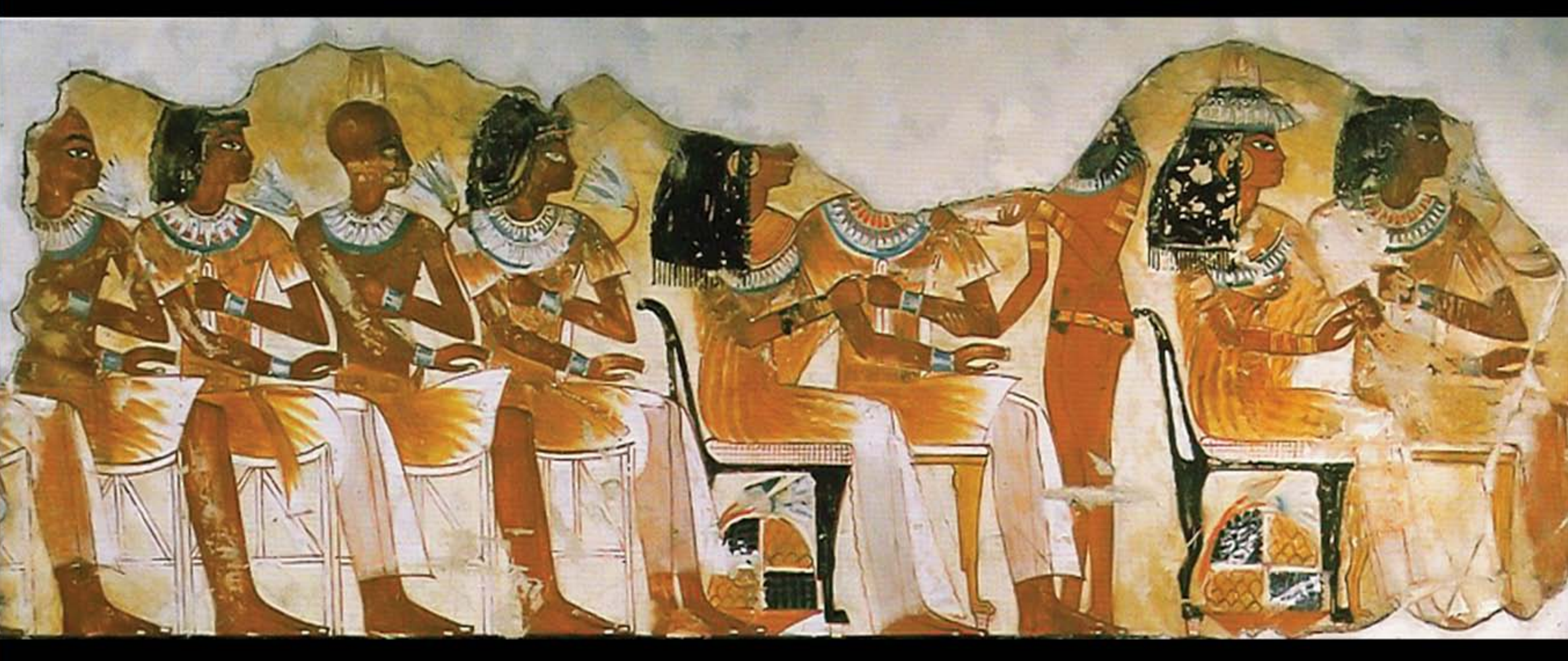
عَـرَفَ المصــريُّ القديــمَ فترةَ الخِطْبَــةِ، ولابدَّ مــن أنَّ الرِّجالَ كانوا يحتالونَ كثيرًا على التَّقاليدِ التي تمنعُ انفــرادَ الخطيبينِ قبلَ إتمامِ الزَّواجِ، كما كانَ العاشقونَ مــن الفتيةِ والفتيــاتِ يحاولونَ الوقوفَ في وجهِ تحفُّظِ المجتمعِ وصرامةِ تقاليدِهِ، ولو بالأهازيجِ والأشــعارِ، فها هــو يتمنَّى في أشــعارِهِ أن يُسْــحَرَ خاتَمًــا في إِصبعِها حتى تَتَسنَّى له رؤيتُها، والتَّمتُّعُ بمشــاهدةِ جمالِها، وها هي تَرجُو في أغانِيها أن يفارِقَها طيــفُ محبوبِهــا الذي شَــغَلَهَا عن اســتكمالِ تصفيفِ شعرِها، وتَتَمنَّى لو تســتطيعُ نِسيانَهُ إلى أن تنتهي فقط من عقدِ جدائِلِها.

هناك سمةٌ أساسيَّةٌ يُمكنُنَا أن نَثِقَ في التَّوصُّلِ إلى تَغلغُلِها في جذورِ المجتمعِ المصريِّ القديم، كُلَّما ازددنا تعمُّقًا في محاولةِ الكشفِ عن حقيقتِهِ، وهي سمةُ التَّوسطِ، فهناك توسُّطٌ عقلانِيٌّ يقفزُ بالعلاقةِ بين الرَّجلِ والمرأةِ من مستوى التَّناحُرِ على أرضيَّةِ المساواةِ، إلى مستوى التَّوافُقِ في إطارِ علاقةِ مشاركةٍ تكامليَّةٍ، وهناك تَوخٍّ للعدالةِ في معاملةِ الأبناءِ بما يَتَنَاسبُ مع طبيعةِ كونِهم ذكورًا أو إناثًا، كما أنَّ هناك تَوسُّطًا عبقريًا يجمعُ ما بين التَّحفُّظِ والجَدِّيَّةِ والاحتشامِ من ناحيةٍ، والمرحِ وحبِّ الحياةِ والقدرةِ على التَّمتُّعِ بمباهجِها من ناحيةٍ أُخرى.



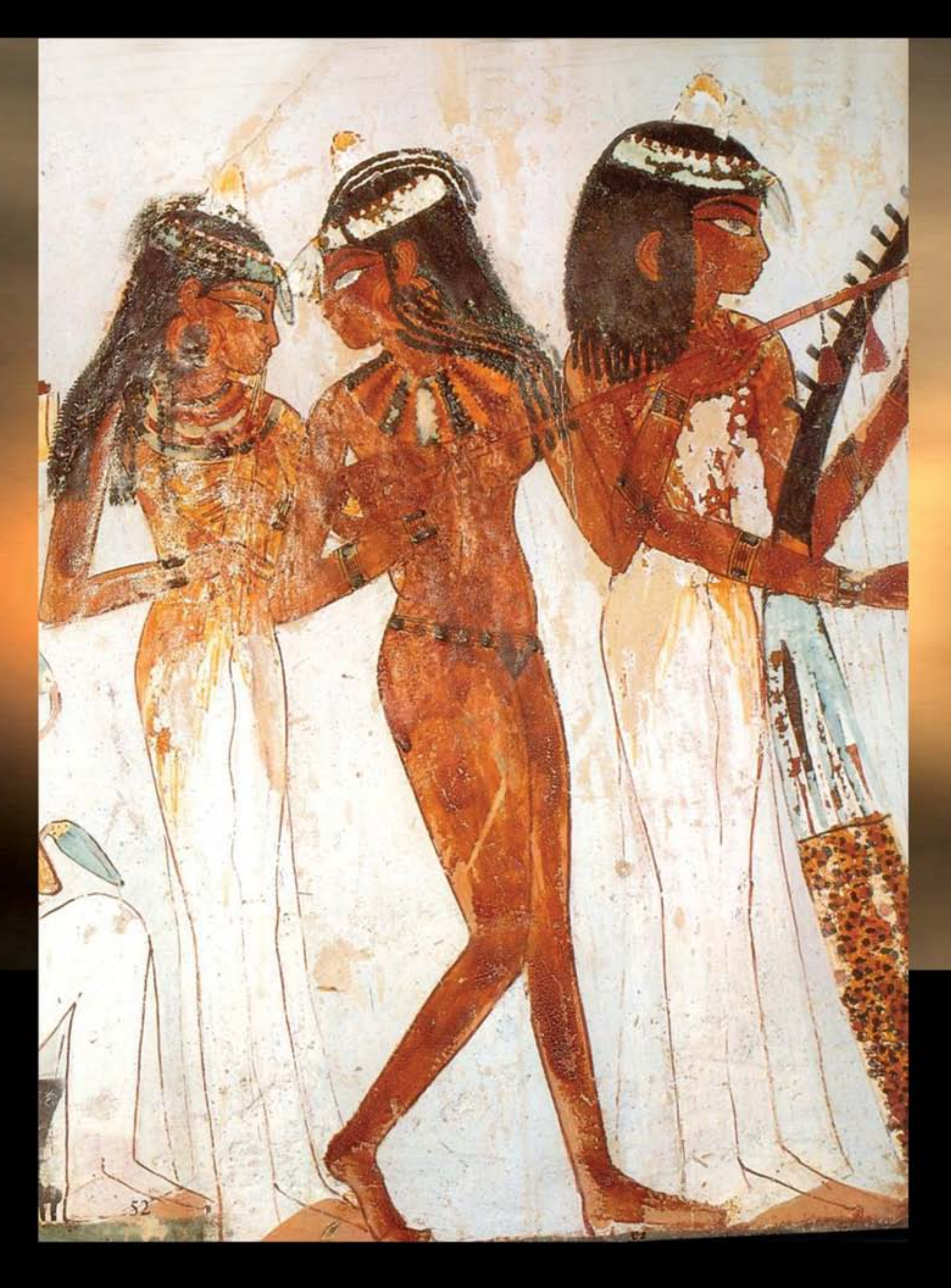
استنكَرَتِ العاداتُ والتَّقاليدُ والأعرافُ المصريَّةُ القديمةُ جميعَ صورِ التَّجاوزِ والتَّهتُّكِ والخلاعةِ، وحرَّمَت على زائرِ البيتِ ـ رئيساً كان أو أخًا أو صديقًا ـ الاختلاءَ بالنِّساءِ، اللائي كُنَّ غالبًا ما يُقِمنَ داخلَ أجنحةٍ أو حجراتٍ مستقِلَّةٍ عن أجنحةٍ وحجراتِ الاستقبالِ، كما قَضَتِ القوانينُ بالقتلِ حَرقًا أو ذبحًا أو غرقًا على الزَّوجةِ الزَّانيةِ، وعلى شريكِها في جريمةِ الزِّنا، وكثيرًا ما كانت تُوصَفُ المرأةُ اللَعُوبُ أو بائعةُ الهوى بالغريبةِ أو الأجنبيَّةِ تنزيهًا للمجتمعِ الفرعونيِّ من ضمِّ أمثالِهن.





بَقِيت ثقةُ المصريِّ القديمِ في صلاحِ نساءِ بيتهِ العاملَ الغالبَ في تحديدِ طريقةِ معاملتِهِ لهنَّ، فلم يَحجُبِ المجتمعُ الفرعونيُّ بحجَّةِ ضمانِ العفَّةِ نساءَهُ عن المشاركةِ في الحياةِ العامَّةِ، حيث صُوِّرتِ المصرياتُ سافراتٍ على الدَّوامِ، وصُوِّرَ الرَّجلُ مُصطحبًا زوجتَهُ وبناتِهِ في رحلاتِ الصَّيدِ والنُّزهةِ في الحدائقِ، ولم يكنِ الزَّوجُ يأبى أن يعودَ الطَّبيبُ زوجتَهُ إذا ما ألمَّ بها المرضُ، ولم يَكنْ يَحُولُ بينها وبين الاستمتاعِ بالمآدبِ وحفلاتِ الرَّقصِ والعزفِ والغناءِ، التي كان لا يُسمَحُ في أكثرِها باختلاطِ الجنسينِ، علاوةً على خَصِّ النِّساءِ فيها بالعازفينَ والمغنِّيينَ مكفوفِي البصرِ، وهو التَّقليدُ الذي ظلَّ مُتَّبعًا في مصرَ إلى وقتٍ قريب.

كَثُـرَت مشــاهدُ المقابــرِ والمعابدِ الفرعونيَّةِ التي تُبــرِزُ جمالَ المرأةِ بجــرأةٍ شــديدةٍ، وبثيــابٍ لا تــكادُ تســترُ أدَقَّ تفاصيلِ الجسدِ الأنثويِّ، فيما يتنافَى مع مــا نعلَمُهُ من تَحفُّظِ المجتمعِ المصــريِّ القديمِ، وتحضُّرِ نظرتِهِ للمرأةِ بشــكلِ عــامٍّ، وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ ذلك إنَّما يُعزَى إلى أنَّ نِسبَ الرَّسمِ التي التزمَ بها الفنَّانُ المصريُّ القديمُ كانت لا تنطبقُ إلا على الجسدِ العــاري، الذي كان يجــبُ أن يظَهرَ بصورةٍ كاملةٍ لأسبابٍ عقائديَّةٍ، فلم يكنْ أمامَ الفنَّانِ بعــد أن ينتَهي من رسمِ الجســدِ العارِي، إلا أنْ يحتالَ برسمِ الثِّيابِ بخطوطٍ وألوانٍ خَفيفةٍ تَحجبُ العُــريَ، ولا تَتَعارضُ مع ما يُريدُ الوصولَ له.



أقرَّ الكثيرُ من مجتمعاتِ العالمِ القديمِ تَعــدُّدَ الزَّوجاتِ، ولم تجــرِ أديانُ أو قوانيــنُ أو عاداتُ تلــك المجتمعاتِ بتحريمِــهِ، والغالبُ – علــى الرَّغمِ من اختــلافِ علمــاءِ المصريَّاتِ – عدمُ تحريمِ تعــدُّدِ الزُّوجاتِ بمُقتَضى الدِّيــنِ أو القانونِ في مصرَ القديمةِ، غيرَ أنَّه من المؤكَّــدِ أيضًا أنَّ تَزَوُّجَ الرَّجلِ بأكثر من امرأةٍ، لغيرِ ضرورةٍ كانت ممَّا لا تُقِرُّهُ العاداتُ والأعرافُ الاجتماعيَّةُ، التي كانت مُكرَّسَةً بشكلٍ كاملٍ للمحافظةِ على استقرارِ الأسرةِ، وضمانِ تَوازنِ العلاقاتِ بين أفرادِها، والتي جَعَلَــت مُجــرَّدَ زواجِ الرَّجلِ بزوجةٍ واحدةٍ، وتربيةِ عددٍ قليلٍ من الأبناءِ تربيةً صحيحةً أمرًا عســيرًا، يَتطلَّبُ الكثيرَ من الإمكاناتِ الماديَّة.

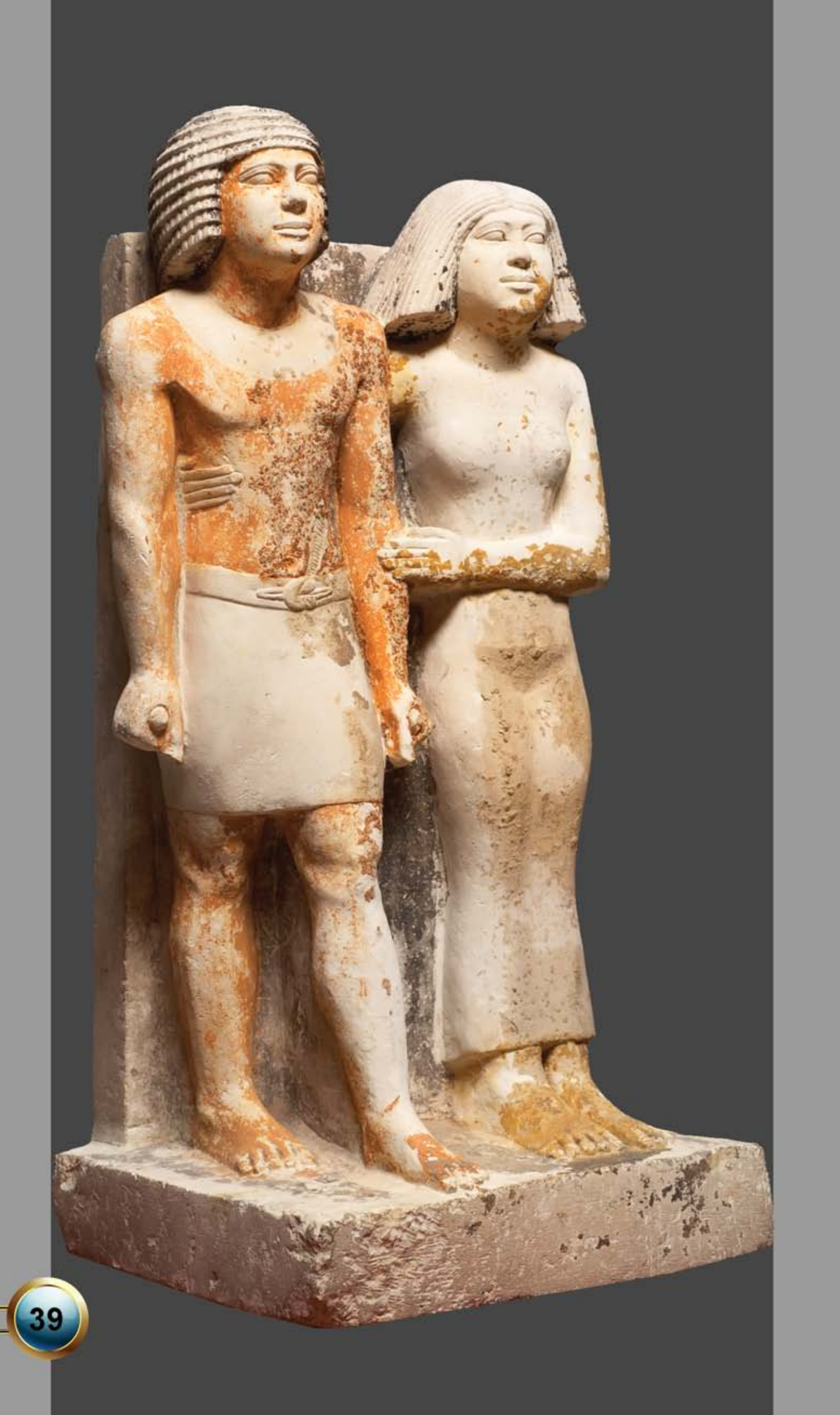




لم يَستِفدْ من عدمِ تحريمِ الدِّينِ أو القانونِ لتعدُّدِ الزَّوجاتِ سوى القلَّةِ من المصريينَ القدماءِ، إذ كان مبدأُ التَّعَدُّدِ ضرورةً للملوكِ من أجلِ ضمانِ إنجابِ الذُّريَّةِ، وتأمينِ وراثةِ العرشِ، وكان مَخرجًا لدى الطَّبقاتِ شديدةِ الفقرِ، التي تسعى إلى زيادةِ الأيدي العاملةِ، أملاً في الهروبِ من شبحِ الحاجةِ، بينما وجدتِ الطَّبقاتُ العُليا في اقتناءِ الإماءِ ما يَحُولُ بينها وبين تَعَدُّدِ الزَّوجاتِ، ولم تُعنِ القدرةُ المادِّيَّةُ الطَّبقاتِ الوسطى على التَّفكيرِ في التَّعدُّدِ، إلا في حالةِ الضَّرورةِ، كعدمِ قُدرةِ الزَّوجةِ الأُولى على الإنجاب.

إن العدلَ بين الزَّوجاتِ كان ممَّا تُلزِمُ به العقيدةُ والتَّقاليدُ، وممَّا يَتَباهَى به المصريُّ القديمُ، ويَحرِصُ عليه حرصًا شديدًا، وكان الطَّلاقُ من الأمورِ العسيرةِ التي دائمًا ما تُكَبِّدُ الزَّوجَ الكثيرَ من الخسائرِ المادِّيَّة والاجتماعيَّةِ، وهو الأمرُ الذي سَاهَمَ كذلك في الحدِّ من تعدُّدِ الزَّوجاتِ، إذ كانَ من حقِّ الزَّوجةِ الأولى في مصرَ القديمةِ أن تشتَرطَ في عقدِ زواجِها عدمَ اقترانِ الزَّوجِ بامرأةٍ أُخرى، مع إقرارِه بتطِليقِها ومنحِها جميعَ حقوقِها الماليَّةِ، بالإضافةِ إلى ما قد يُتَّفقُ عليه من تعويضاتٍ، إذا ما أرادَ الاقترانَ بغيرِها.





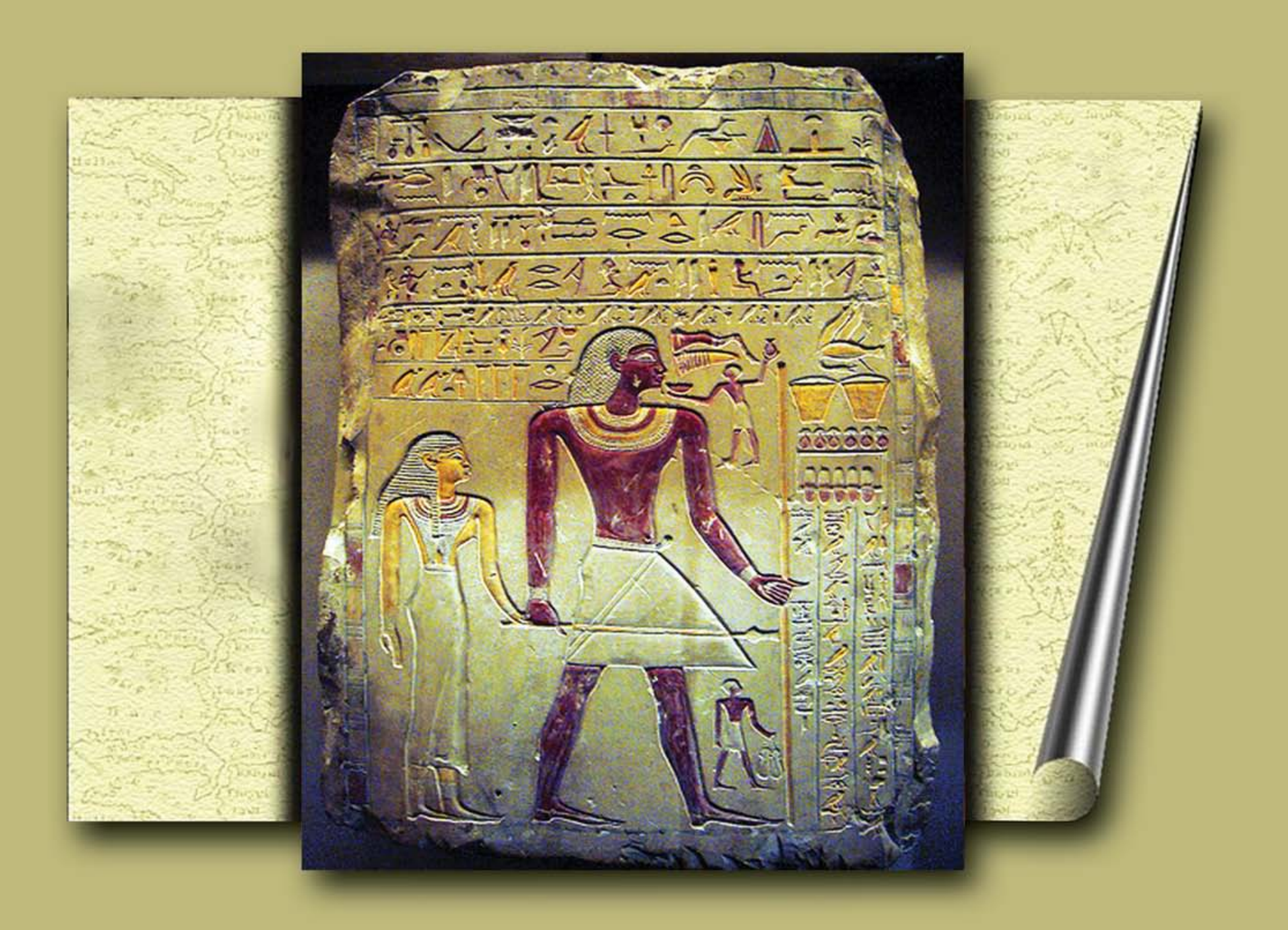
كـان ثِـقَـلُ ما يَتَحمَّلُهُ الـزَّوجُ من التزاماتٍ إذا ما أقـدَمَ على تطليقِ زوجـتِـه أيضًا ضمانةً لاستقرارِ الحياةِ الأسريَّـةِ في مصرَ القديمةِ، وسببًا في الحدِّ من عددِ حـالاتِ الانفصالِ بين الأزواجِ، ومع أنَّ حقَّ التَّطليقِ كان دائمًا في يدِ الرَّجلِ، الذي كـان يكفِيهِ أن ينطِقَ ببعضِ الكلماتِ لحلِّ رابطةِ الزَّوجيَّةِ، كان من الزَّوجاتِ من يَشترطْنَ في عقودِ زواجهنَّ تَمتُّعهنَّ بحقِّ تَطليقِ أنفسهنَّ، كما كان من حقِّ الزَّوجةِ الفرعونيَّةِ دائمًا اللُجوءُ إلى القضاءِ، وطَلَبُ التَّطليقِ من زوجِها، ليس لشيءٍ، إلا لأنَّها لا تَرغَبُ في إكمالِ حياتِها معه.



كان على الزَّوجِ في مصرَ القديمةِ إذا ما أرادَ تطليقَ زوجتِهِ دونَ رَغبَتِها، ودونَ ارتكابِهَا لجريمةٍ كُبرى كالزِّنَا، أن يَمنَحَهَا كاملَ حقوقِها الماليَّةِ، وكان على الزَّوجةِ إذا ما رَغِبتْ في التَّطليقِ من زوجِها دونَ رغبتِهِ أن تَرُدَّ له نصفَ ما حَصَلَتْ عليه من صداقٍ، مع تنازُلِها عن حقوقِها في المكاسبِ التي حَقَّقاها خلالَ فترةِ الزَّواجِ، وكان الطَّلاقُ عادةً ما يُسجَّلُ، لِتَحصُلَ المُطلَّقةُ على شهادةٍ موثَّقةٍ تُمكِّنُها من الزَّواجِ مرَّةً أُخرى، وتُثبِتُ طلاقَهَا بإرادَتِها، أو بإرادةِ زوجِها دونَ أن يَكُونَ هناك جرمٌ اقتَرَفَتْهُ في حقِّه.



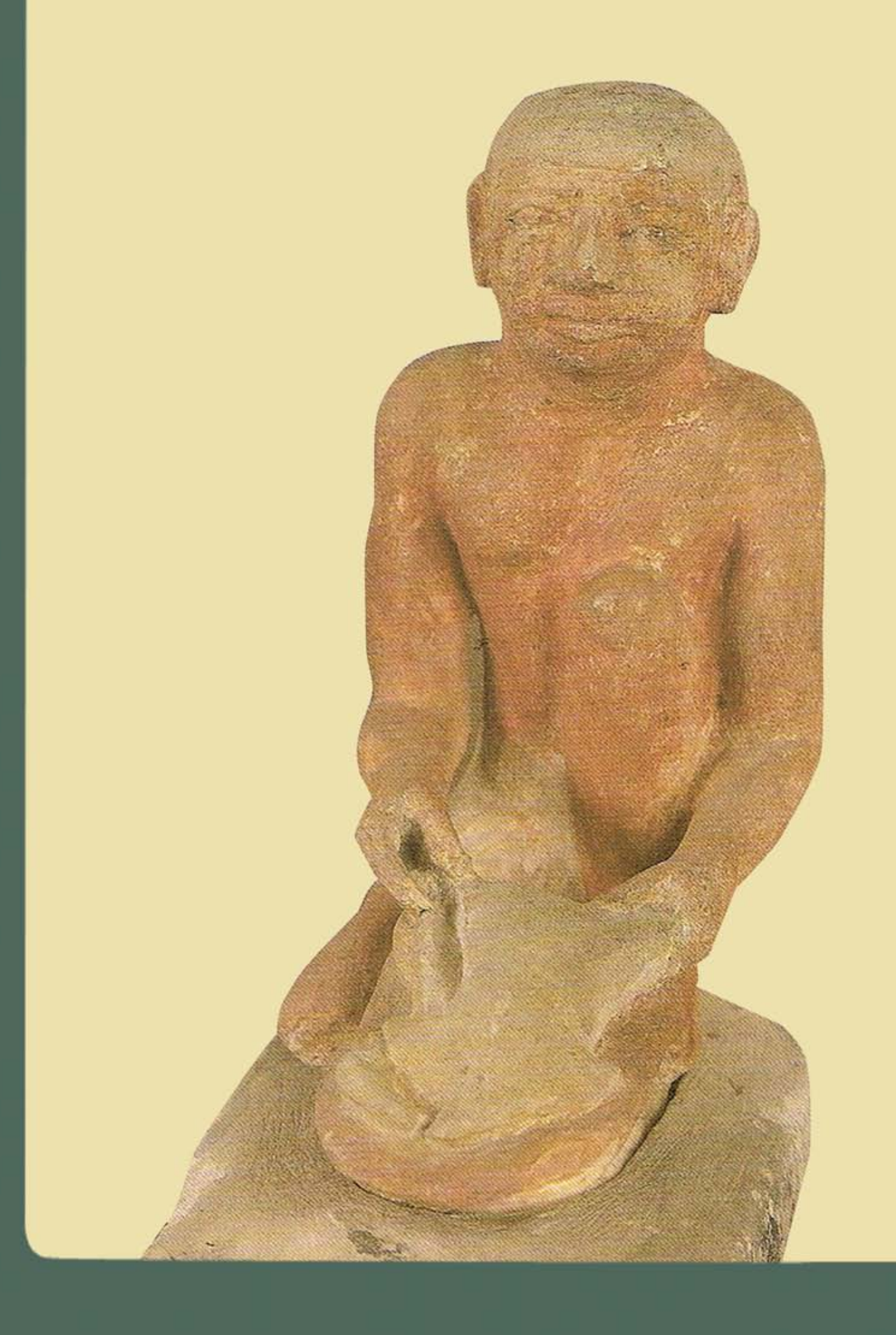
لم تَتَضَمَّنْ وثائقُ العصورِ المصريَّةِ القديمةِ تشريعاتٍ قانونيَّةً صريحةً تُحدِّدُ ما كان مُتَّبعًا في الميراثِ، غَيرَ أنَّهُ لابدَّ للعُرفِ الاجتماعيِّ الذي كان سائِدًا ومستقِرًا حينئذٍ من أن يكونَ قد ضُمِّنَ في تشريعاتٍ لم تَصلْنَا حتى اليومِ، فقد كانَ من حقِّ المصريِّ القديمِ أن يُوصِيَ ببعضِ أو كلِّ تَركَتْهِ لمَنْ يشاءُ، وأن يُوقِفَ ما يشاءُ من ثَروتِهِ على ما يَرغَبُ من أعمالٍ، على أنْ يُوزَّعَ ما تَبقَّى بعد ذلك بحسبِ العرفِ السَّائدِ والمُستقرِّ الذي كان يَمنَحُ الأنثى نصيبًا مساويًا تمامًا لنصيبِ الذَّكرِ، طَالَما تَساوَى الطَّرفانِ في درجةِ قرابَتِهِما من المُتَوَفَّى.



كان للزَّوجــةِ في مصرَ القديمةِ ذمَّةٌ ماليَّةٌ مُســتقلَّةٌ، وممتلكاتٌ تَئــولُ إلى الــزَّوجِ والأبناءِ بعد الوفاةِ، كمــا كان لها أن تَحصُلَ على ثلثِ الثَّروةِ المُشتركةِ بينها وبيــن زوجِها، والتــي جَمَعَاها سويًّا طُوالَ رحلةِ الزَّواجِ، عند الطَّلاقِ أو عند موتِ الزَّوجِ، مع حفظِ حَقِّها في مشــاركةِ أبنائِها في الثُّلثينِ المملوكيــنِ للزَّوجِ عنــد وفاتِهِ، كمــا كان للزَّوجةِ الفرعونيَّــةِ الحقُّ فــي وراثةِ أبنائِها ووالديها، مع تَمتُّعِها – تبعًــا للتَّقاليدِ – بِمَيزةِ الحصولِ دونَ الذُّكــورِ علــى جميــعِ ما تَتْرُكُهُ الأمُّ عند رحيلِها من حُليٍّ ومنقولات.



لم يكنْ مبعثُ شغفِ الآباءِ والأمِّهاتِ في مصرَ القديمةِ بإنجابِ عددٍ كبيرٍ من الأبناءِ، مجرَّدَ الرَّغبةِ في إشباعِ غرائزِ الأبــوَّةِ والأمومةِ وحدَها، بل كان لذلك العديدُ من الأســبابِ الاجتماعيَّةِ والدِّينيَّةِ، فعلاوةً على الخوفِ من كثرةِ أعــدادِ الوفيَّاتِ بين المواليدِ والأطفالِ صِغَارِ السِّنِّ في ذلك الوقتِ، كانت وفرةُ الأبناءِ بمثابــةِ ثروةٍ هائلةٍ فــي المجتمعِ الزِّراعيِّ المصــريِّ، ودليلٍ على القوَّةِ والمنعةِ، كمــا كانتِ العقائدُ الدِّينيَّةُ دائمًا ما تَربِطُ بين ســعادةِ المرءِ في الآخــرةِ وبين ما يُؤدِّيهِ له أبنــاؤهُ من شــعائِرَ جنائزيَّةٍ، وما يُقَدِّمونَ لــه من قرابينَ، وما يقومونَ به من أعمالٍ تُحيي اسمَهُ وتُدِيمُ ذكرَاه.





على الرَّغمِ مــن الأهميَّةِ القُصوى لكثرةِ عددِ الأبناءِ لدى المص ريين القدماءِ، لم يكن هناك مانعٌ دينيٌّ أو اجتماعيٌّ يحولُ بين الأمِّ وبين تَجَنُّبِ الحملِ، إذا ما أنهكَتْهَا كثرةُ الولادةِ، وأَعجزتْهَــا عن تنشــئَةِ صغارِها التَّنشــئةَ الملائِمةَ، حيث برَعَ الطِّبُّ المصريُّ القديمُ في إيجادِ وســائلَ منعِ الحمــلِ الدَّائمةِ والمؤقَّتةِ. وقد كان التَّبنــي حلاًّ اجتماعيًّــا مُعترفًا به لمشــكلةِ العقم، إذ يقولُ أحدُهم لصديقِهِ العقيمِ: "إنَّك وإن تكُ موفورَ الثَّراءِ، إلا أنَّك لم تعملْ على أن تَهبَ شــيئاً لأحدٍ. وأولَى بِمَنْ لم يكنْ لهُ ولدٌ أن يَتَخَيَّرَ لنفسِــهِ يتيمًا يَتَعَهَّدُهُ بالتَّربيةِ، حتى إذا ما نَما عندَهُ صَبَّ الماءَ على يديه، وأصبحَ كأنَّهُ ولدُهُ الذي من صُلْبُه".

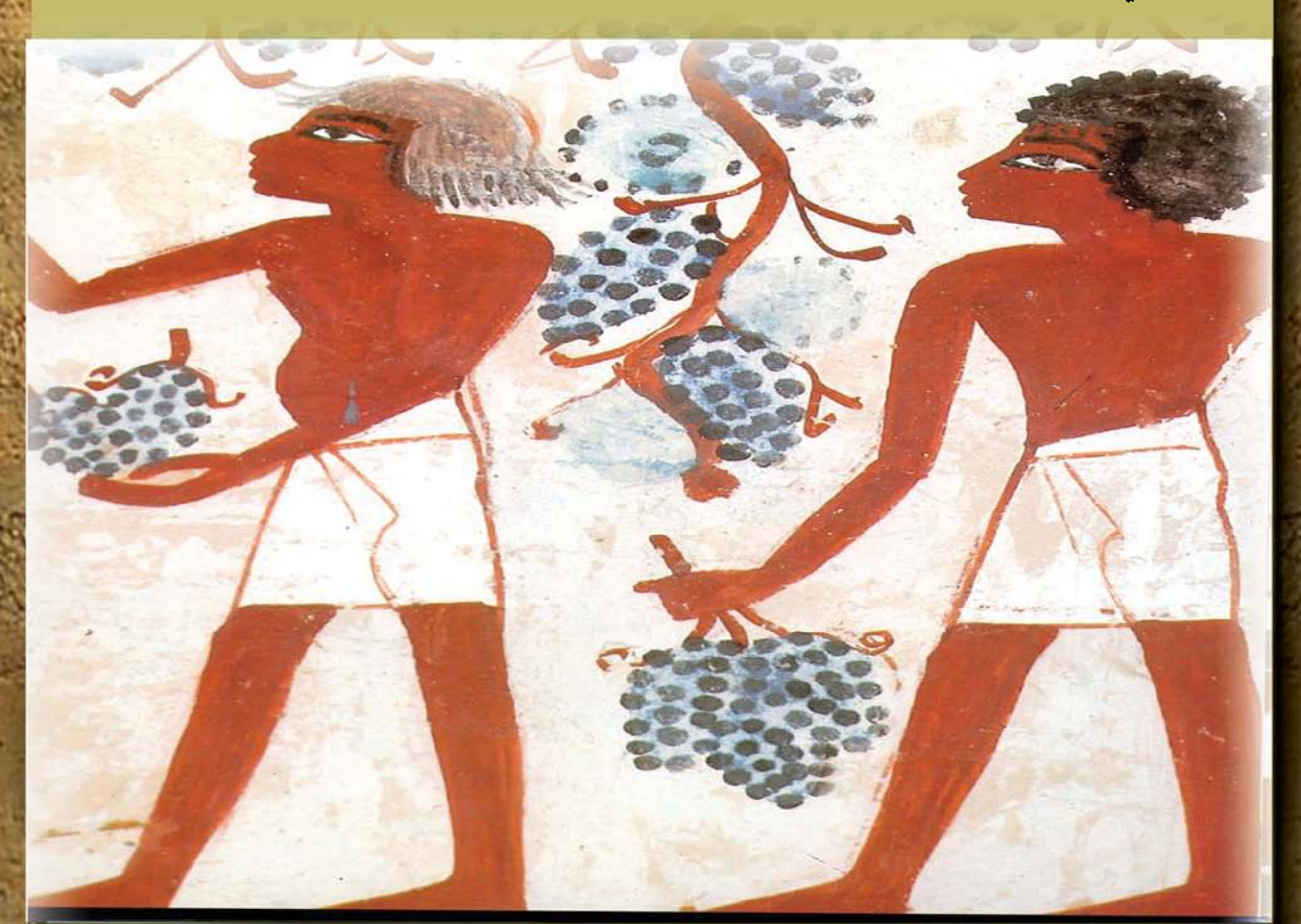
على نحوِ ما يَجرِي حتى اليومِ في الرِّيفِ المصريِّ، كان لتسميةِ المولودِ في مصرَ القديمةِ الكثيرُ من الطُّقوسِ، كما كانت تَغْلُبُ على التَّسمياتِ روحُ التَّديُّنِ والحذرِ، مع إمكانيَّةِ التَّأثُّرِ في التَّسميةِ بالحوادثِ الاجتماعيَّةِ والسِّياسيَّةِ والأُسريَّةِ المُصاحبةِ لعمليَّةِ الولادةِ، فكثيرًا ما كان يُنسَبُ المولودُ إلى أحدِ الآلهةِ، مثل "باكن رع" أي عبدُ رع، أو إلى مناسبةٍ دينيَّةٍ، مثلِ "حور محب" أي حور في عيدٍ، أو يُنسَبُ إلى ظرفِ ولادتِه، مثل "إيمحوتب" أي القادم في سلامٍ، أو يُسَمَّى باسمٍ يَتَمنَّى لهُ الخيرَ، مثلِ "سنب" أي سليمٌ مُعافى، و"اوف عنخ" أي يَحيى أو خالدٌ، و"مري" أي محبوبٌ، و"حسي" أي ممدوح.





دَلَّت أســماءُ الإناثِ في مصرَ الفرعونيَّــةِ علــى تجــاوزِ المصــريِّ القديمِ لفكــرةِ تَقَبُّلِ إنجابِ الإناثِ، وعــدمِ تَفضيلِ الذُّكورِ، ومُخالفةِ ما كان شائِعًا في المجتمعــاتِ المعاصرةِ له إلى خصِّ الإناثِ بقدرٍ أكبر من الرِّعايةِ والاهتمامِ، حيث اتَّسمَت أغلبُ أســماءِ إنــاثِ الفراعنةِ بالعزوبــةِ والتَّدليــلِ والرِّقةِ، فكان منها "نفرة" أي جميلةٌ، و"نفرو" أي حُســنٌ وجمالٌ، و"نفرتاري" أي أكثرُهنَّ حُسنًا وجَمــالاً، و"حــرس نفر" أي بهيَّةٌ، و"حريــرةٌ" أي زهرةٌ، و"مريت" أي حبيبةٌ، و"مررة" أي محبوبــةٌ، و"تاميــة" أي قِطَّة.

كان من المعتادِ في مصرَ القديمةِ إطلاقُ أكثرَ من اسمٍ على المولودِ، كأن يكونُ له اسمٌ رسميٌّ يُسَجَّلُ في الوثائقِ الرَّسميَّةِ، وآخَرُ يَتِمُّ تَداولُهُ بهدفِ التَّخفيفِ من طولِ أو ثِقَلِ وقعِ الاسمِ الرَّسميِّ، وأحيانًا بهدفِ دفعِ عينِ الحسدِ عن الطِّفلِ، كأن تُطْلِقُ الأمُّ على ابنِها إلى جانبِ اسمِهِ الرَّسميِّ "جاري" أي عقربٌ، أو "بنو" أي فأرٌ، أو "بورخف" أي أحمقُ، ونادرًا ما كان الأطفالُ ينادُونَ بأسمائِهِم كاملةً، إذ كانتِ الأسماءُ تُخفَّفُ وتُنغَّمُ للتَّدليلِ، إلى حد أنْ تَصيرَ "بيبي"، و"تيتي"، و"ميمي"، و"تي"، و"شري"، بل إن "رع مسيس"، أو "رمسيس" الذي يَعني ابن الإلهِ "رع" كثيرًا ما كان يُخَفَّفُ إلى "سيسي" و"سوسو".

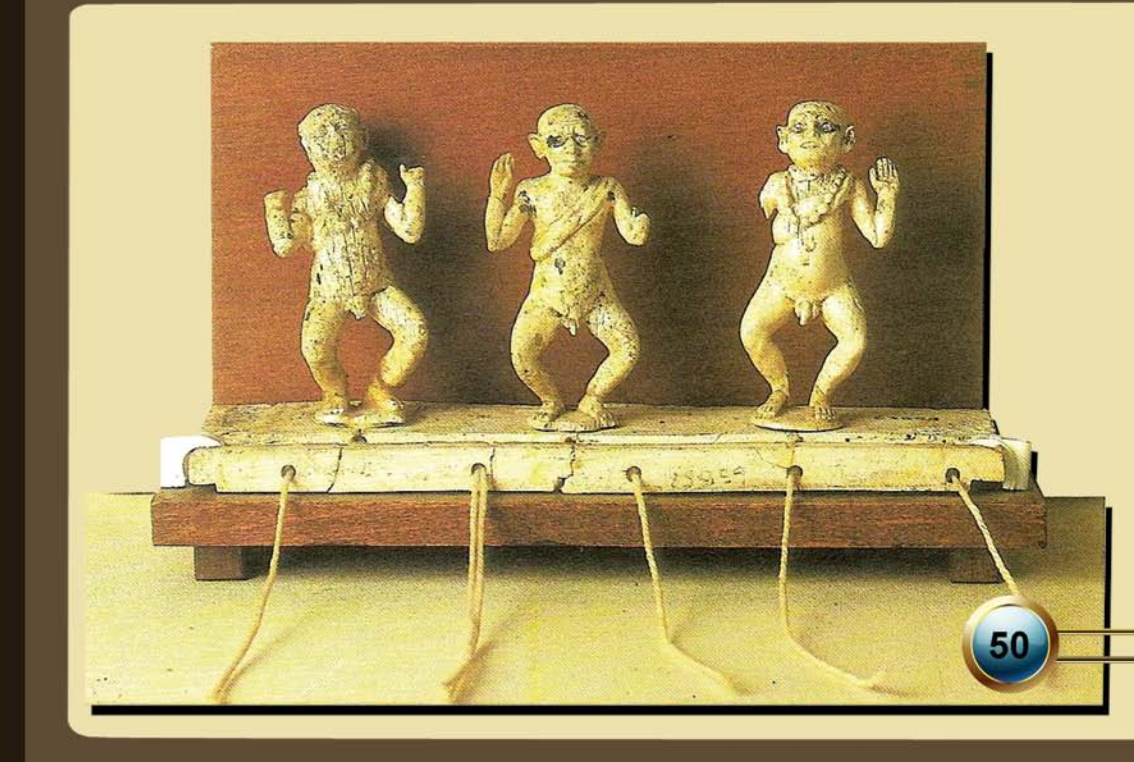




خَصَّتِ الأمَّهاتُ في مصرَ القديمةِ مواليدَهُنَّ بالرِّعايةِ الفائقةِ، فَحرَصْنَ على إرضاعِهِم رضاعةً طبيعيَّةً، كما تَوَصَّلَ الطِّبُّ الفرعونيُّ إلى تَصنيعِ عقاقيرَ تُنظِّمُ تَبوُّلَ المواليدِ، وتُعالجُ ما قد يُصيبُهم من نَزلاتٍ معويَّةٍ أو سُعالٍ أو رمدٍ، أو أوجاعٍ عند التَّسنينِ، مع الحِرصِ على ختانِ الذُّكورِ دونَ الإناثِ، والاهتمامِ بالاستحمامِ اليوميِّ وبنوعيَّةِ الطَّعامِ ونظافتهِ، مع تقليلِ كِمِّيَّتِهِ لمنْ يبلُغُ منهم حدَّ الفِطَامِ. وإن كان عَدَدُ الوفيَّاتِ بين أطفالِ المصريين القدماءِ كبيرًا إذا ما قِيسَ بما هو معهودٌ اليومَ، فإنَّهُ يُعَدُّ ضئيلاً للغايةِ إذا ما قُورنَ بما كان سائدًا في المجتمعاتِ المعاصرةِ لهم.

تَحفَلُ آثـارُ مصرَ القديمةِ، ونـقـوشُ وصـورُ المقابرِ والمعابدِ على ما يُناسِبُ كلَّ فئاتِ الأطفالِ العمريَّةِ من ألعابِ التَّسليةِ، التي كانت تُصْنَّعُ من الخشبِ والـصَـلـصَـالِ والـفَـخَّـارِ والقيشاني والعاجِ والجلدِ والحجرِ، كما تَـمَّ العُثورُ على مجموعاتٍ كبيرةٍ من العرائسِ والدُّمَى التي تُشبِهُ إلى حدٍّ كبيرٍ عرائسَ ودُمَى أطـفـالِ الـرِّيـفِ المصريِّ المعاصرِ، كـفِـرقِ الأقـزامِ الموصولةِ بخيوطِ التَّحريكِ، والتَّماسيحِ ذاتِ الفُكوكِ التي تَبتَعدُ وتَنطَبِقُ بواسطةِ الخُيوطِ، والدُّمَى التي تُماثِلُ الإنسانَ والحيوانَ، بعيونٍ مُطعَّمةٍ وأفواهٍ مُتَحرِّكَة.







حينما يَشِبُّ الطِّفلُ المصريُّ القديمُ، ويَزهدُ في عَرائسِهِ المُتحرِّكةِ، سَرعَانَ ما كان يَنطَلِقُ إلى الطُّرقاتِ والأزِقَّةِ والحُقولِ، ليُمَارِسَ مع رفاقِهِ ألعابًا لا تكادُ تختلفُ كثيرًا عمَّا يُمارسُهُ أطفالُ القُرى والمدنِ المصرِّيةِ حتى اليوم، فنَجِدُ فريقينِ يَتَبارِيانِ في جذبِ الحبلِ، وفريقينِ آخرينِ يلعبانِ "عسكرَ وحراميَّة"، بينما يَنتَحِي فريقٌ لِلَّعبِ بالنَّحلةِ الدَّوَّارةِ، وآخرُ لِلَّعبِ بالزَّهرِ أو بالحَصَى "زوج أم فرد"، وثالثٌ يُحَلِّقُ حولَ اثنينِ يلعبانِ المصارعةَ أو التَّحطيبَ، فيما كان للإناثِ ألعابُهنَّ الخاصَّةُ يُمارِسنَهَا بأسلوبٍ أكثرَ تَحفُّظًا، كأداءِ بعضِ حركاتِ الجُمبازِ أو اللَعبِ بكراتٍ صغيرةٍ مصنوعةٍ من الجلدِ المحشوِّ بالقَشِّ.



كَفَلَتْ روحُ السَّماحةِ والرِّفقِ عند المصريِّ القديمِ السَّعادةَ لأسرتِه، ووفَّرَت لها التَّقاليدُ المُفعَّمةُ بالتَّحفُّظِ والحذرِ سِياجًا يَحولُ بينها وبين التَّفكُّكِ والانهيارِ. وقد لَعِبتِ الأمُّ المصريَّةُ دَورًا مِحوريًّا في المُحافظةِ على تماسُكِ تلك الأسرةِ، وبَذَلَت من الجُهدِ الكثيرَ في سبيلِ رعايةِ أفرادِها، فَكَثُرَ التَّنبيهُ في الأدبِ المصريِّ القديمِ على ذكرِ فَضلِ الأمِّ، وحُسنِ مُعاملتِها، وها هو الحكيمُ الفرعونيُّ "آني" يَنصحُ قائِلاً: "إذا شَببتَ وتَزَوَّجتَ واستقرَّ بك المُقامُ في دارِك، ضَعْ نُصبَ عينيكَ كيف ولدْتك أمُّكَ، وكيف عَمِلَتْ على أن تُربِّيكَ بكلِّ سبيلٍ. ولا تَدَعْهَا تَلومُكُ، وتَرفعُ كَفَّيها ضَارعةً إلى الإلهِ، فَيستجيبُ لدعائِها".



مع عِظَـمِ مكانَـةِ الأمِّ فـي مصرَ القديمةِ، لم يكنْ دَورُ الأبِ في تَنشئةِ أبنائِهِ بَعيدًا عـن التَّوقيرِ، ولم تكنْ مسئوليَّاتُ التَّأديبِ والتَّثقيفِ المُلقاةِ على عاتقِهِ بأقلَّ مِمَّا أُلقِيَ على كَاهلِ الأمِّ من مهامٍ وواجباتٍ، حتى شَـاعَ بين المصريين القدماءِ القولُ: "نَهْجُ الولـد، نَهْجُ أبيه". وفـي مُقابلِ ما يَبذُلُهُ الأبُ من جُهدٍ في تنشئةِ أبنائِهِ، لـم يكنْ ينتظرُ منهم ما هو أكثرُ من حقِّ السَّـمعِ والطَّاعةِ، وتَقَبُّلِ شيءٍ من التَّقويمِ العِقابيِّ، وسطَ مجتمعاتٍ كانت تبيحُ للآباءِ وئدَ بناتِهِم، كما أن الآشوريين والرُّومانَ – مِنْ بَعدِهُم – لم يجدوا غَضاضةً في السَّـماحِ للآبـاءِ بِرَهنِ أبنائِهـم، بل وبيعِهِم عند الضَّرورة.

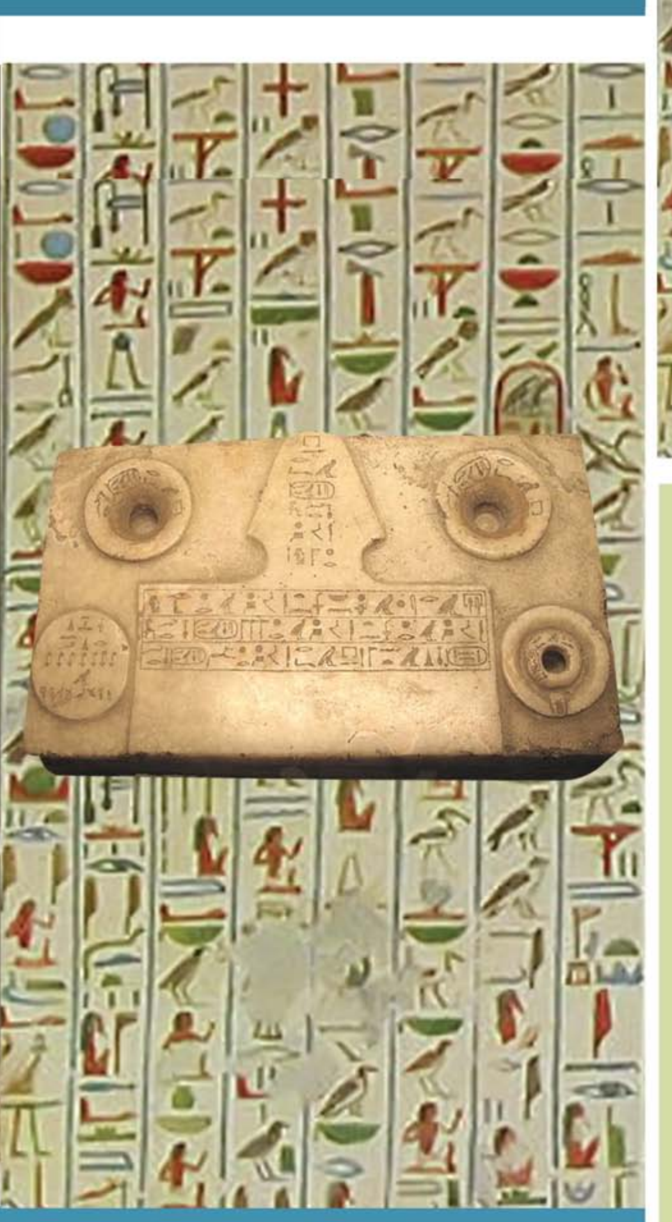


كان الابنُ في مصرَ القديمةِ يُنسَبُ لأبيهِ، ويُسَجَّلُ باسمِ الأبِ والأمِّ في السِّجلاتِ الرَّســميَّةِ، ولم يكنْ هناك حرجٌ من أن يُنسَــبَ لأمِّهِ، إذا مــا كان ذلك مدعاةً للفخرِ، كأن تَكونُ إحدى أميراتِ الأسرةِ الحاكمةِ. وقد حَرَصَ الأبناءُ دائمًا على الاعترافِ بفضلِ الأبِ، وتَسجيلِ قيامِهِم بواجباتِ البُنُوَّةِ، فكَتَــبَ أحدُهم قائِلاً: "كنتُ عُكَّازَ الشَّــيخوخةِ في يد أبي ما بَقِيَ على وجــهِ الأرضِ، وكنتُ أروحُ وأغــدوُ وفْقَ أمرهِ، ولم أخَالفْ أبدًا ما قــرَّرَهُ فَمُهُ، ولم أتعــوَّدْ أنْ أتطَلَّعَ إليه بنظَراتٍ كَثيرةٍ، وكنتُ أُطأَطِئُ بوَجهي حين يُحَدِّثُني". ولعلَّ الكثيرَ من مظاهرِ ذلك التَّــأدُّبِ لا يزالُ باقيًا في المجتمعِ الريفيِّ المصريِّ إلى اليوم.

كانتِ الوظائفُ الحكوميَّةُ في مصرَ القديمةِ الغايةَ التي يَسعَى إليها كلُّ طَامحٍ، فهي الطَّريقُ الذي يَبتعدُ بِمنْ يَسلُكُهُ عن الاشتغالِ بالعملِ الزِّراعيِّ المُضنيِّ، وتَعَلُّمِ الحِرفِ اليدويَّةِ الشَّاقَّةِ، وهي بابُ التَّرقِّي لأرفعِ وظائفِ الدَّولةِ، وأكثرِها جلبًا للتَّميُّزِ والغِنى. وكان لابدَّ لمن يُريدُ أن ينتظمَ في السِّلكِ الإداريِّ للدَّولةِ الفرعونيَّةِ من الالتحاقِ بإحدى مدارسِ التَّعليمِ الأولي المُسَمَّاةِ بـ"بيوتِ الحياةِ"، والتي عادةً ما كانت تُلْحَقُ بمعابدِ الآلهةِ المُقامةِ في جميعِ مُدنِ الوادِي والدِّلتا.







تَمتَّعتْ "بيوتُ الحياةِ" بنظامٍ إداريٍّ صَارمٍ، ويومٍ دراسيٍّ يَمتدُّ من ساعاتِ الصَّباحِ الباكرِ إلى ما بعد مُنتصفِ النَّهارِ، حيثُ كانَ التَّلاميذُ يتناولونَ طَعامَ الغذاءِ بينما يقومونَ بإنجازِ واجباتِهِم الدِّراسيَّةِ على ألواحٍ خشبيَّةٍ مُغطَّاةٍ بطبقةٍ من الجِصِّ، الذي يُمكِنُ محوَ ما يُنقَشُ عليه بواسطةِ أقلامٍ من البوصِ المهذَّبِ الأطرافِ بسرعةٍ وسهولةٍ، أمَّا اقتناءُ لَوحةِ حفظِ الأحبارِ والأقلامِ، واستخدامِ ورقِ البَردي غالي الثَّمنِ في الكتابةِ، فلم يكَنْ مُتاحًا إلا للكَتَبةِ المحترفينَ، الذين أَنهَوا بنجاحٍ دراستَهُم الأوَّليَّة.





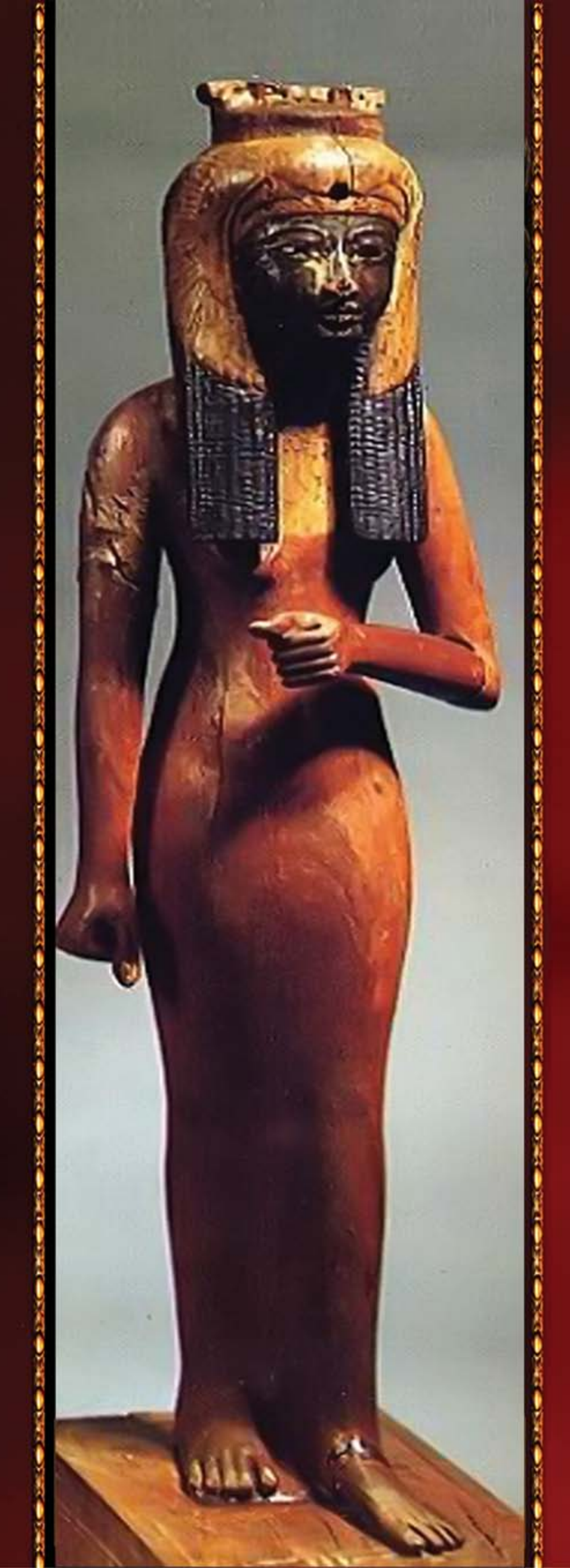
كان على تلميذِ "بيتِ الحياةِ" أن يُتقِنَ القراءةَ والكتابةَ، وأن يُلِمَّ بالقواعدِ اللُّغويَّةِ، وبمبادئِ الحسابِ والهندسةِ والرَّسمِ والجغرافيا، وأن يَتَلَقَّى كمًّا هائِلاً من النُّصوصِ التَّاريخيَّةِ والأدبيَّةِ الشهيرةِ، ليقومَ بحفظِها، وتدوينِها عشراتِ المرَّاتِ، طلبًا للإتقانِ والتَّمكُّنِ، تحتَ إشرافٍ دقيقٍ من المعلِّمينَ، كما كان يَتوجَّبُ عليه بعد ذلك كُلِّه أن يُثْبِتَ تَفوُّقَهُ واستيعابَهُ لجميعِ ما حَصَلَ عليه من معارفَ في اختبارٍ قاسٍ، حتى يُمكِّنَهُ التَّخرُّجَ من المدرسةِ الأوليَّةِ، والحصولَ على لقبِ "كاتبٍ حاملٍ للمحبرة".

يَتَخَرَّجُ تلميذُ "بيتِ الحياةِ" في عمرِ العاشرةِ أو الثَّانيةَ عشرةَ، لِيبدأَ في العملِ والدِّراسةِ العُليا في نفسِ الوقتِ، فبحسبِ ميولِهِ وقدراتِهِ ومستوى تحصيلِهِ في المرحلةِ الأوليَّةِ، يَتِمُّ إلحاقُهُ بإحدى الوظائفِ الصُغرى في أحدِ الدَّواوينِ الحكوميَّةِ، لِيتَلَقَّى أثناءَ عملِهِ التَّوجيهَ مِمَّن يكبُرُهُ سِنًّا ودرايةً، ويَتَعَرَّضُ للتَّوبيخِ والعِقابِ كُلَّما وَقَعَ في الخطأ، قبلَ أنْ يَعرِفَ طَريقَهُ إلى التَّرقِّي، مع استمرارِهِ في التَّعَلُّمِ وفي تعليمِ مَنْ هو أدنَى منه، طُوالَ حياتِهِ المهنيَّةِ، التي لا تَنقَطِعُ طَالَما كان مُتَمَتِّعًا باللياقةِ الصِّحِّيَّةِ والقُدرةِ على العملِ والإنجَاز.





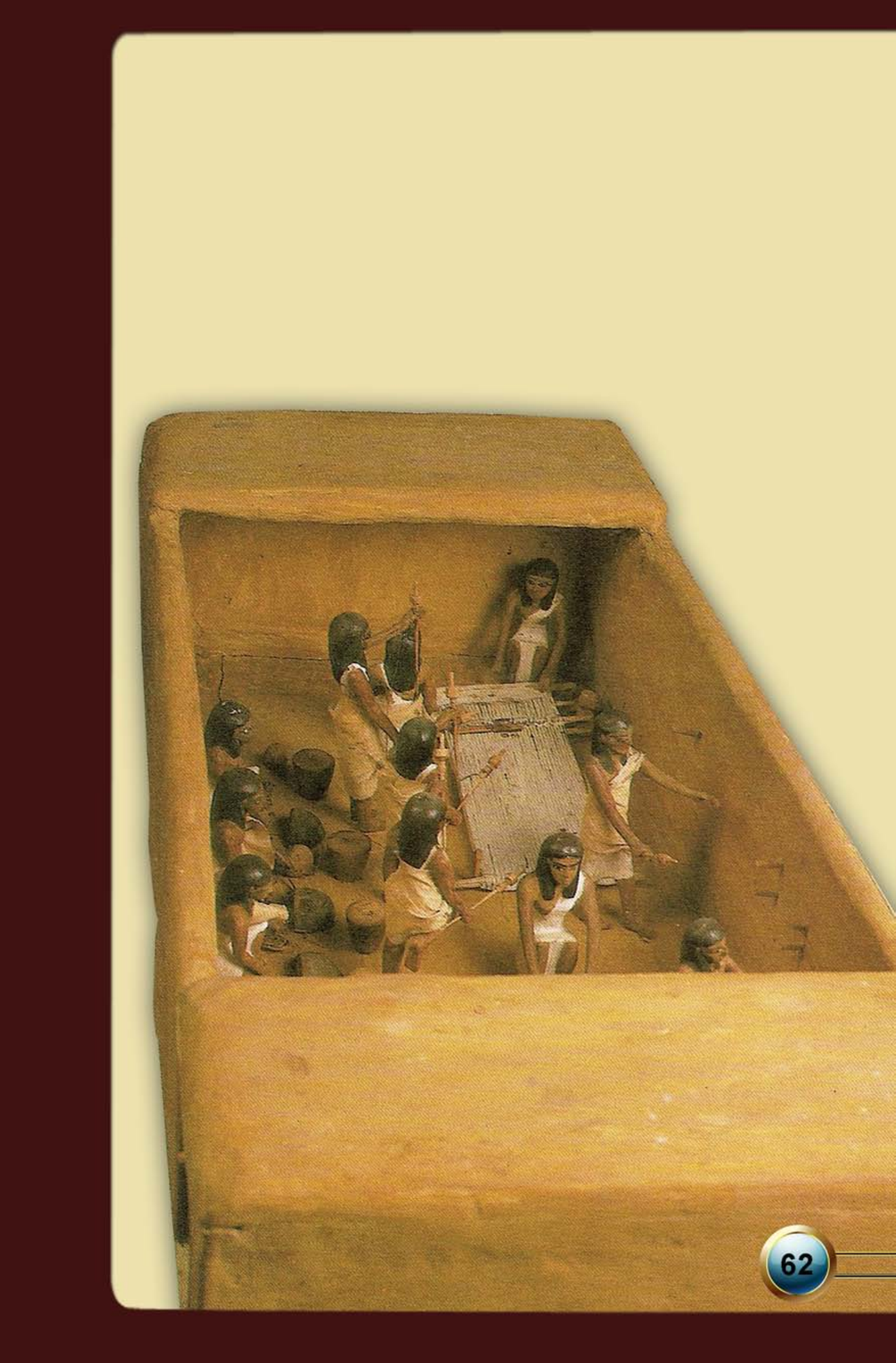
انتَشَــرَ في مصــرَ القديمــةِ مبدأُ توارثِ المهنِ، فكما يَرثُ المَلِكُ أباه في الجلوسِ على عرشِ الفراعنةِ، يُــورِّثُ الكاهِنُ وظائِفَــهُ لأبنائِهِ، ويُعِدُّ حُكَّامُ المقاطعاتِ بنيهم لوراثةِ مراكزِهِــم الاجتماعيَّــةِ الممتازةِ، وهكذا في جميعِ الوظائفِ والحرفِ والمهــنِ على اختلافِهــا، غيرَ أنَّ الحــقَّ في تَلَقِّي العلــمِ والانضمامِ لأحدِ "بيــوتِ الحياةِ" كان مَكفولاً للجميــعِ، فمنْ حقِّ الآباءِ دائمًا أن يَتَطَلَّعــوا إلى تحقيــقِ حياةٍ أفضلَ لأبنائِهــم، وأن يَقُومــوا بإلحاقِهِم بمــدارسِ التَّعليمِ الأُولــي، طَالما كانــوا يعتقدون فيهم نُبوغًا وقدرةً على التَّحصيلِ والتَّرقيِّ، وما داموا قادرينَ علــى تَعَهُّدِهــم بالرِّعايةِ طُوالَ سنواتِ تَعليمهم.



غالبًا ما كانتْ مدارسُ التَّعليم الأولي في مصرَ القديمةِ قاصرةً على الذُّكورِ دونَ الإنــاثِ اللائِي قــلَّ التحاقُهُنَّ بـ"بيوتِ الحياةِ"، وإن وُجِدَ منهُنَّ مَــنْ تَلَقَّــتْ تعليمًا نظاميًّــا بهدفِ الالتحاقِ بإحــدى الوظائفِ الدِّينيَّةِ أو الدُّنيويَّةِ، فــإنَّ الجانبَ الأعظمَ من المتعلِّماتِ في بلادِ الفراعنةِ كُنَّ يَحصُلْنَ علــى تَعليمِهنَّ الأوَّليِّ في المنازلِ، حيث كانَ يُخَصَّصُ لهنَّ مَنْ يَتَوَلَّــى تَدريبَهُنَّ على إتقانِ الكتابةِ والقــراءةِ، ويَضمَنُ لهــنَّ الإلمامَ بمُختلفِ مبادئِ العلــومِ والفنونِ. وقد عَرَفَ المجتمعُ المصريُّ القديمُ عددًا من النِّساءِ اللائي حَمَلْنَ لقبَ كاتباتٍ، وتَولَّينَ مسئوليةَ العديدِ من الوظائفِ المُهمةِ والمرموقة.



حَمَلَتِ البرديَّاتُ التي وصَلَتْ إلينا من مصرَ القديمةِ الكثيرَ من النُّصوصِ التي تَحضُّ على التَّعلُّمِ، وتبالغُ في التَّحقيرِ من شأنِ العملِ اليدويِّ، ومن بينها تلك البرديَّةِ التي يَنصَحُ فيها "خيتي" أحد أبنائِهِ بالحرصِ على الانتظامِ والاجتهادِ في تحصيلِ العلمِ، مُستعرِضًا ما يُعانِيهِ أصحابُ الحرفِ من مشقَّةٍ، فها هو: "صانعُ النَّحاسِ يَتَعرَّضُ للجمرِ المشتعلِ، الذي يُكْسِبُ جِلْدَهُ خُشونَةَ التَّماسيحِ، وتَنبَعِثُ منه رائحةٌ تشبهُ رائحةَ خليطِ البيضِ والسَّمكِ.. والنَّجارُ الذي يَقضِي نهارَهُ وليلَهُ مُمسكًا بآلةِ قطعِ الأخشابِ، حتى يَكِلَّ ساعداهُ.. والبنَّاءُ الذي يعملُ بين الطِّينِ والأحجارِ حتى يُسقِطَهُ المرضُ".



وبعـــد أن يَختِمَ "خيتـــي" هَجوَهُ بـ"الإسكافِيِّ الذي يُرهِقُ نفسَهُ في شَدِّ الجلودِ.. والسَّقَّاءِ الذي يُلاقِي المشـــقَّةَ في حملِ المياهِ، والتَّنَقُّلَ بها لمســـافاتٍ طَويلـــةٍ.. والصَّيَّادِ الذي يقضي يومَهُ على الشَّـــاطِئ وفي نفسِـــهِ هَلعٌ من التَّماســـيحِ.. وكاهِنِ المعبدِ الذي يَلزَمُ معبَدَهُ كما يَلزَمُ الفلاحُ أرضَهُ.. والجُنديِّ الذي تَتَعَـــدَّدُ قياداتُهُ، ويَســـمَعُ ويُطيعُ، ويُوقِظُونَهُ ولـــم يَمضِ على نومِهِ ســـاعةٌ"، يقول: "اُنْظُرْ.. لا تُوجَدُ مهنةٌ بغيرِ رئيسٍ، إلا مهنةُ الكاتبِ الذي يكونُ رئيسَ نفسِهِ.. فإذا ما قَرأتَ ما في الكتبِ، صَارَ كُلُّ شيءٍ حَسناً بالنِّسبَةِ لك".







يُمكِنُنا – إذا ما اســتثنينَا طبقةَ الإماءِ والعبيدِ – تَقسيمَ المُجتمعِ المصريِّ القديمِ إلى ثلاثِ طبقاتٍ اجتماعيَّةٍ مُختلفــةٍ، ففي القِمَّةِ يُوجــدُ المَلِــكُ وأبناءُ الأســرةِ الحاكمةِ، وحولهَمُ حُكَّامُ الأقاليمِ وقــادَةُ الجيــشِ وكبــارُ رجالِ الإدارةِ والكهنــوتِ، وفي القاعِ هناك عــددٌ كبيرٌ مــن العاملينَ بالزِّراعــةِ والرَّعــي والصَّيــدِ وصغــارِ الحرفييــنَ، وما بين الطَّبقتيــنِ تُوجَدُ طبقةٌ وسُــطى تَتَكــوَّنُ من صغارِ رجالِ الإدارةِ والجيــشِ والكهنوتِ، بالإضافةِ إلــى عددٍ غيرِ قَليلٍ من أصحابِ الحِرَفِ والصِّناعَات.

تَمَتَّعَ المَلِكُ في مصـــرَ القديمةِ بمكانةٍ عظيمةٍ، وأُحِيطَ بشـــيءٍ من التَّقديسِ المُســـتمَدِّ مـــن الاعتقادِ الرَّاســـخِ في كونِه يحكـــمُ بتفويضٍ وإلهـــامٍ إلهيٍّ، فهو الكاهنُ الأوَّلُ، والقَاضي الأعظمُ، والقائِـــدُ الأعلى للجيشِ والشُّـــرطةِ، والحاكـــمُ المُطلـــقُ الذي يَدِيـــنُ لهُ كُلُّ المصريينَ بالسَّـــمعِ والطَّاعةِ. غيرَ أنَّ حَالَ المَلِكَ في مصـــرَ القديمةِ، ومَدى خُضوعِ الشَّـــعبِ لسلطاتِهِ دائمًا ما كان يَتَأَثَّرُ بدرجةِ نجاحِ أو فشـــلِ سياساتِه، ودائمًـــا مـــا كان يَتَوَجَّـــبُ عليه إثباتُ جدارتِهِ بالجُلوسِ على العرشِ، لاسِيَّما وقتَ الاحتفالِ بالـ"حب سد"، أو العيدِ الثَّلاثِينـــي لتولِّيه الحكـــمَ، الذي يَجِبُ أن يُبَرهِـــنَ فيه على قُوَّتِـــهِ وجَدارتِهِ بالاستمرارِ، ولو بشكلٍ رمزي.

كان الـ"بر عا" أو البيتُ الكبيرُ مَقَرَّ إقامةِ المَلكِ وأسرتِهِ، والمقرَّ الأعلى للحكمِ والإدارةِ، حيث كانَ يشغَلُ جانبًا كبيرًا من العاصمةِ، ويضمُّ عددًا وافرًا من الموظَّفين والخدمِ والحرفيين، وتلحَقُ به مساحاتٌ شاسعةٌ تحتوي على المخازنِ ودورِ المحفوظاتِ، وثكناتِ الجيشِ، والمقرِّ الرَّئيسيِّ للشُّرطةِ. وقد ارتبطَ تعبيرُ "بر عا" بالملِكِ نفسِهِ، وتَعدَّى التَّعبيرُ عن مَحلِّ إقامتِهِ إلى الدَّلالةِ على شخصِهِ، وهو التَّعبيرُ الذي تَمَّ تحريفُهُ فيما بعدُ إلى "فرعا" و"فرعون"، لِيُستَخْدَمَ الآن في الدَّلالةِ على التَّاريخِ المصريِّ القديمِ بأثرِه.





كان مــن الطَّبيعيِّ أن يحتــاجَ الجهازُ التَّنفيــذيُّ للدَّولةِ المصريَّــةِ القديمةِ إلى عددٍ هائلٍ من الموظَّفينَ بمُختلفِ درجاتِهــم وتَخصُّصاتِهــم، وكان من المعتادِ أن يجمَعَ الموظَّفُ الواحدُ بين عِدَّةِ وظائفَ وألقابٍ لا رابطَ بينها، كما كان من غيرِ المُستهجنِ أن يصعَدَ أحدُ العامَّــةِ باجتهادِهِ ونبوغِــهِ إلى أعلى درجاتِ السُّــلَّمِ الوظيفيِّ، وأن يصيرَ الحِرَفيُّ بما خصَّتْهُ الآلهةُ من مواهبَ وقدراتٍ أحدَ رِجالاتِ الدَّولةِ البارزين، فها هو "نخبو" يُسَــجِّلُ على جِدرانِ مقبرتِهِ بالجيــزةِ كيف بدأ حياتَهُ بنَّاءًا عاديًّا، وكيف أصبــحَ بفضلِ مواهبِهِ وقدراتِهِ كبيــرًا للمعماريينَ في عهدِ المَلِكِ "بيبي الأول".





أدَّى اعتمادُ الأسرِ المُوسِرةِ في مصرَ القديمةِ على تصنيعِ أغلبِ حاجاتِها من السِّلعِ والمنتجاتِ الاستهلاكيَّةِ – كالصِّناعاتِ الغذائيَّةِ، وصناعاتِ الغزلِ والنَّسيجِ – في منازلِها إلى ظهورِ ما يُشبِهُ المُجمَّعاتِ الصِّناعيَّةَ الصَّغيرةَ داخلَ حُدودِ تلك المنازلِ، وتكوُّنُ طَائفةٌ كثيفةُ العددِ من العمَّالِ المُشتغلين بها، والذين ظَلُّوا حِرَفيين أحرارًا، تربُطُهُم بأصحابِ المنازلِ عقودُ عملٍ عادلةٍ، بالرَّغمِ من إقامتِهم الدَّائمةِ في منازلِ أربابِ أعمالِهِم، وارتباطِ مكانَتِهم وما يُمكنُ أن يَصُبُّوهُ من اقتدارٍ أو عَنتٍ بما ينالُهُ أربابُ أعمالِهم من حُظوظ.

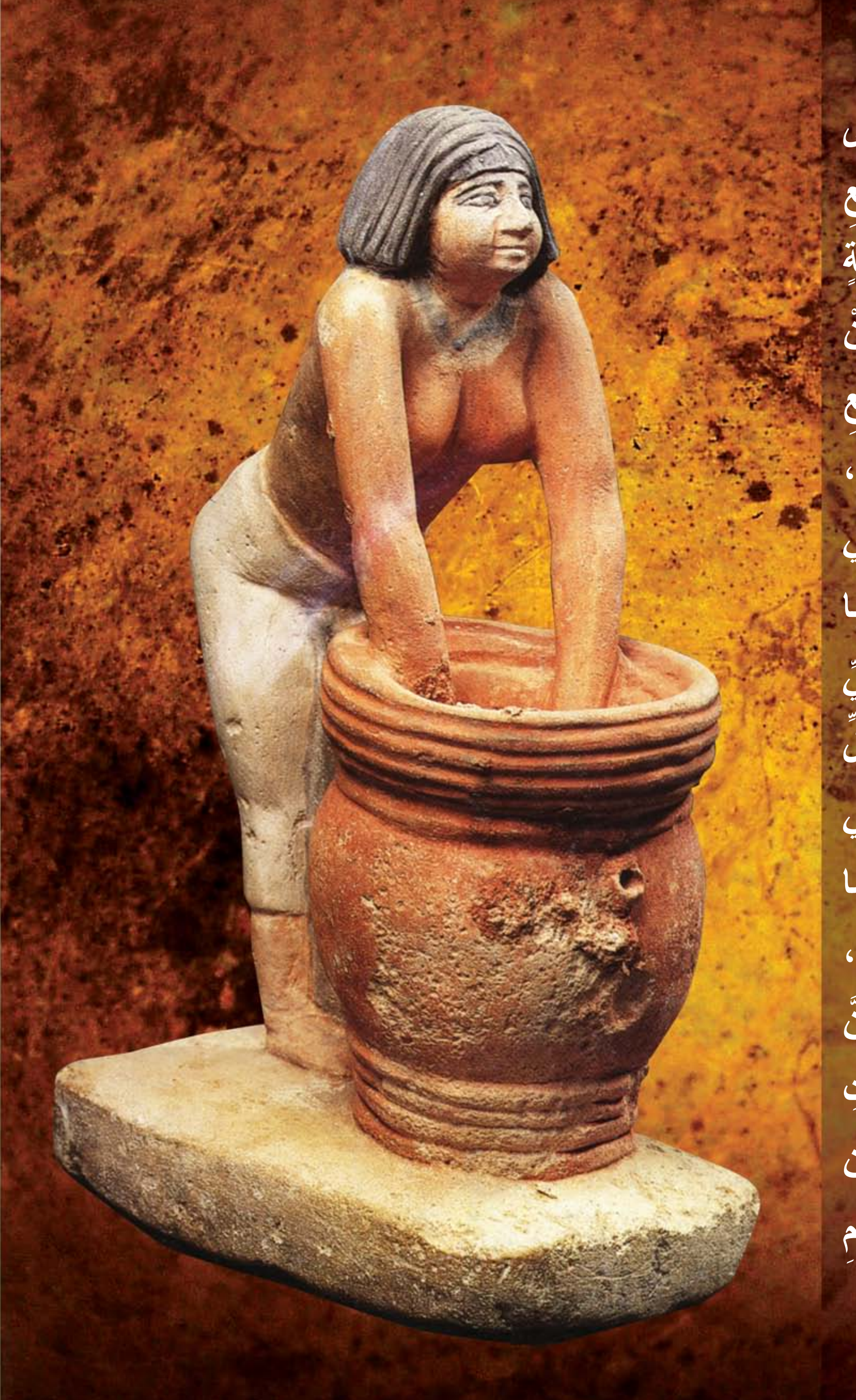


عَرَفَ المجتمعُ المصريُّ القديمُ وجودَ الرَّقيقِ، خاصَّةً في عصورِ الرَّخاءِ، وفي أوقاتِ تحقيقِ الانتصاراتِ الحربيَّةِ، إذ كانَ من المعتادِ إلحاقُ الأسرى بخدمةِ العسكريين الذين قاموا بأسرِهم، كما كانَ الأثرياءُ عادةً ما يُقبلُون على شراءِ الإماءِ والعبيدِ الذين يُجْلَبُونَ إلى مصرَ عن طريقِ تُجَّارِ الرَّقيقِ الآسيويينَ. ولكنَّنا حتى إذا ما أضفنَا إلى ذلك عددًا من المصريين الذين كانوا يَفقدون حُرِّيَّتَهُم من جرَّاءِ الأحكامِ القضائيَّةِ، ومع الاعترافِ بأداءِ الرَّقيقِ لدورٍ ملموسٍ في الحياةِ الفرعونيَّةِ، يُمكِنُنَا أن نُؤَكِّدَ على أنَّهم لم يُمَثِّلُوا يومًا الأعدادَ الكثيفةَ والقوَّةَ الضَّخمةَ التي يُمكِنُها لَعِبَ الدَّورِ الرَّئيسيِّ في سوقِ العملِ المصري.





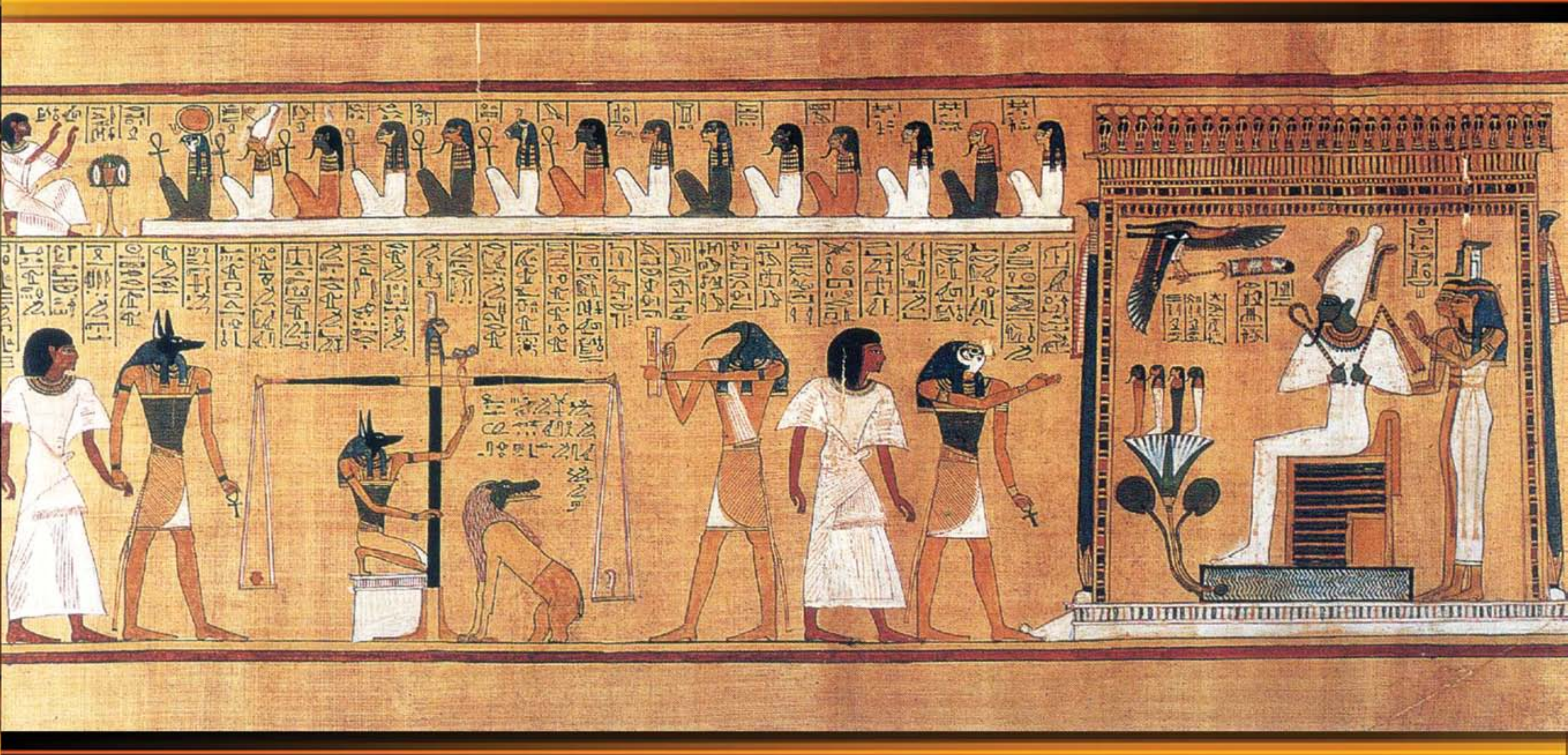
كان للأرقَّاءِ في مصرَ القديمةِ ذمَّةٌ ماليَّةٌ مُستقلَّةٌ ومُعترفٌ بها، فكانَ في وسعِهم حِيازةُ الأراضي وامتلاكُ العقاراتِ والمعادنِ الثَّمينةِ، تحتَ إشرافِ سادتِهم وبموافقتِهم، كما كان من حقِّهم توارثُ تلك الممتلكاتِ، بل وصلَ بعضُهم إلى حدِّ أن اتَّخذَ لنفسِهِ خَدَمًا وأتباعًا، كما لم يَمنعِ المجتمعُ المصريُّ القديمُ اقترانَ الأرقَّاءِ بالأحرارِ، وإن كان ذلك لم يَتمَّ إلا على نطاقٍ ضَيِّقٍ، بالإضافةِ إلى أنَّهُ كثيرًا ما كان السَّادةُ يعتِقونَ عبيدَهُم من أسرى الحربِ، الذين سَرعَانَ ما ينَدمِجونَ في الحياةِ المصريَّةِ، ويُصيرونَ مواطنينَ أحرارًا قادرينَ على أنْ ينَالوا أرفعَ المناصب.



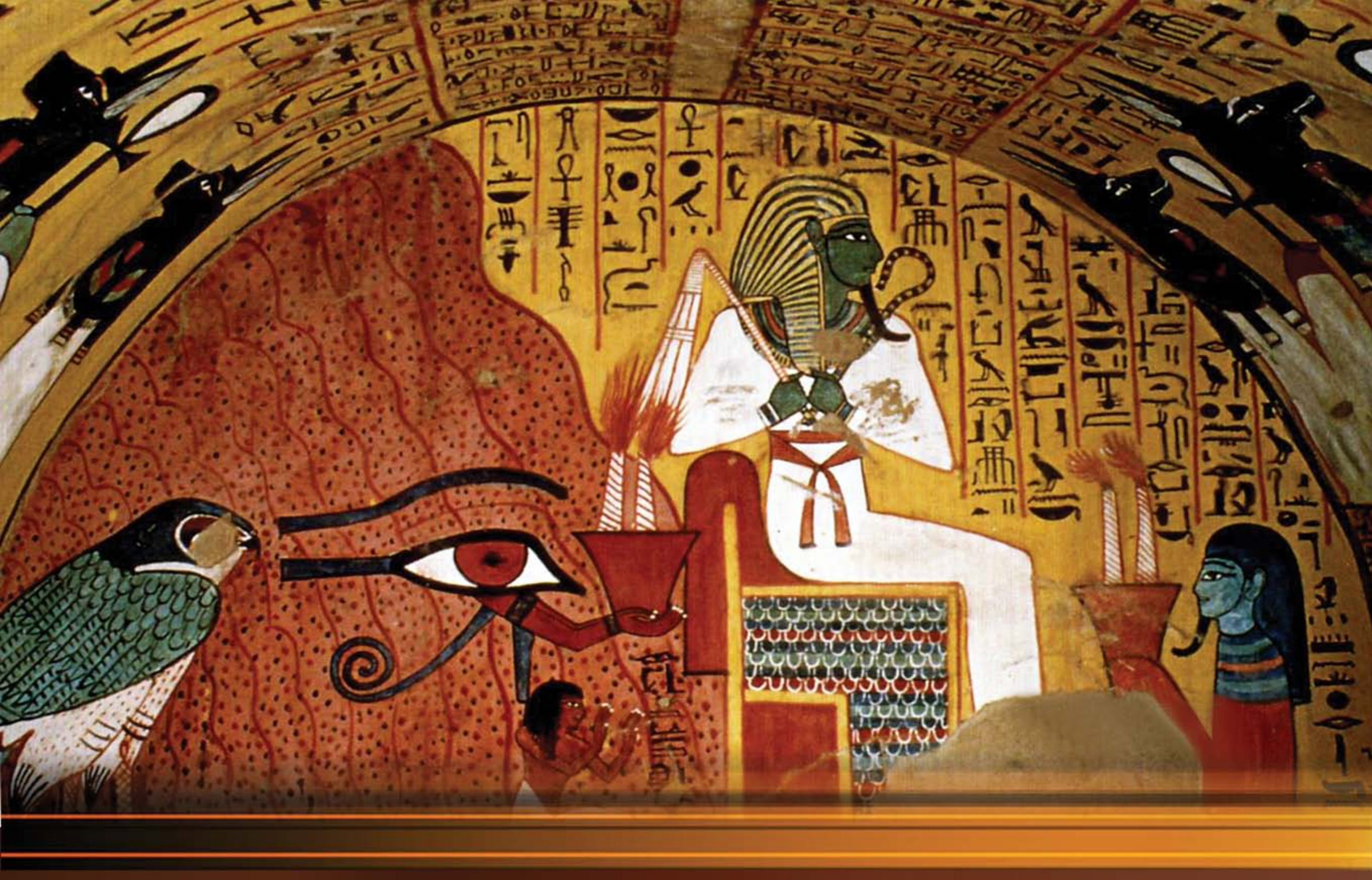
على الرَّغم من التَّأكيدِ على تَمَتُّعِ الأرقَّاءِ في المجتمعِ المصريِّ القديمِ بمُعاملةٍ إنسانيَّةٍ مُتحضِّرةٍ، فإنَّنا لا نستطيعُ أنْ نُعَمِّمَ ذلك التَّأكيدَ على جميعِ عصورِ التَّاريخِ الفرعونيِّ، وجميعِ الأُسرِ المصريَّةِ التي امتلَكَتِ الإماءَ والعبيدَ، غيرَ أنَّنا نستطيعُ دائمًا أنْ نُؤَكِّدَ على رُقِيِّ حضارةِ الفراعنةِ، وبُعدِهَا كُلِّ البُعدِ عن حضارةِ الرُّومانِ التي اعتَبَرَتِ الأرقَّاءَ مَتاعًا خاصًّا يَحِلُّ لصاحبِهِ تَدميرُهُ وإهلاكُهُ، بل إنَّنا يَجبُ أن نُؤَكِّدَ على أنَّ حالَ أرقَّاءِ مصرَ في ذلك الوقتِ المُبكِّرِ من تاريخِ البشريَّةِ، كان أفضلَ كثيرًا من حالِ أرقَّاءِ العالمِ في العصورِ الوُسطى.



كان في مصرَ القديمةِ مَنْ يحيا حياةً مُرفهةً يُظلِّلُها الثَّراءُ والبذخُ، وكان فيها أيضًا من يعيشُ عيشةَ الضِّيقِ ومحاولةَ البحثِ عن طريقٍ لضمانِ الكَفافِ، غيرَ أنَّ المجتمعَ الفرعونيَّ كان في أغلبِ عُصورِهِ ضَامنًا لبَنيهِ قدرًا عظيمًا من العدالةِ، مانحًا لكلِّ مجتهدٍ ما يستَحِقُّ من مُميِّزاتٍ، كما كان بعيدًا كلَّ البعدِ عن الجمودِ، إذ لا نلبثُ في عصورِ التَّدهورِ أنْ نَّرى تَظاهراتٍ هنا واعتصاماتٍ هناك، بل إنَّ ضعفَ الإدارةِ وضياعَ العدالةِ سَرْعَانَ ما أدَّى في نهايةِ عصرِ الدَّولةِ القديمةِ إلى قيامِ أوَّلِ ثورةٍ اجتماعيَّةٍ عَرَفَها التَّاريخ.

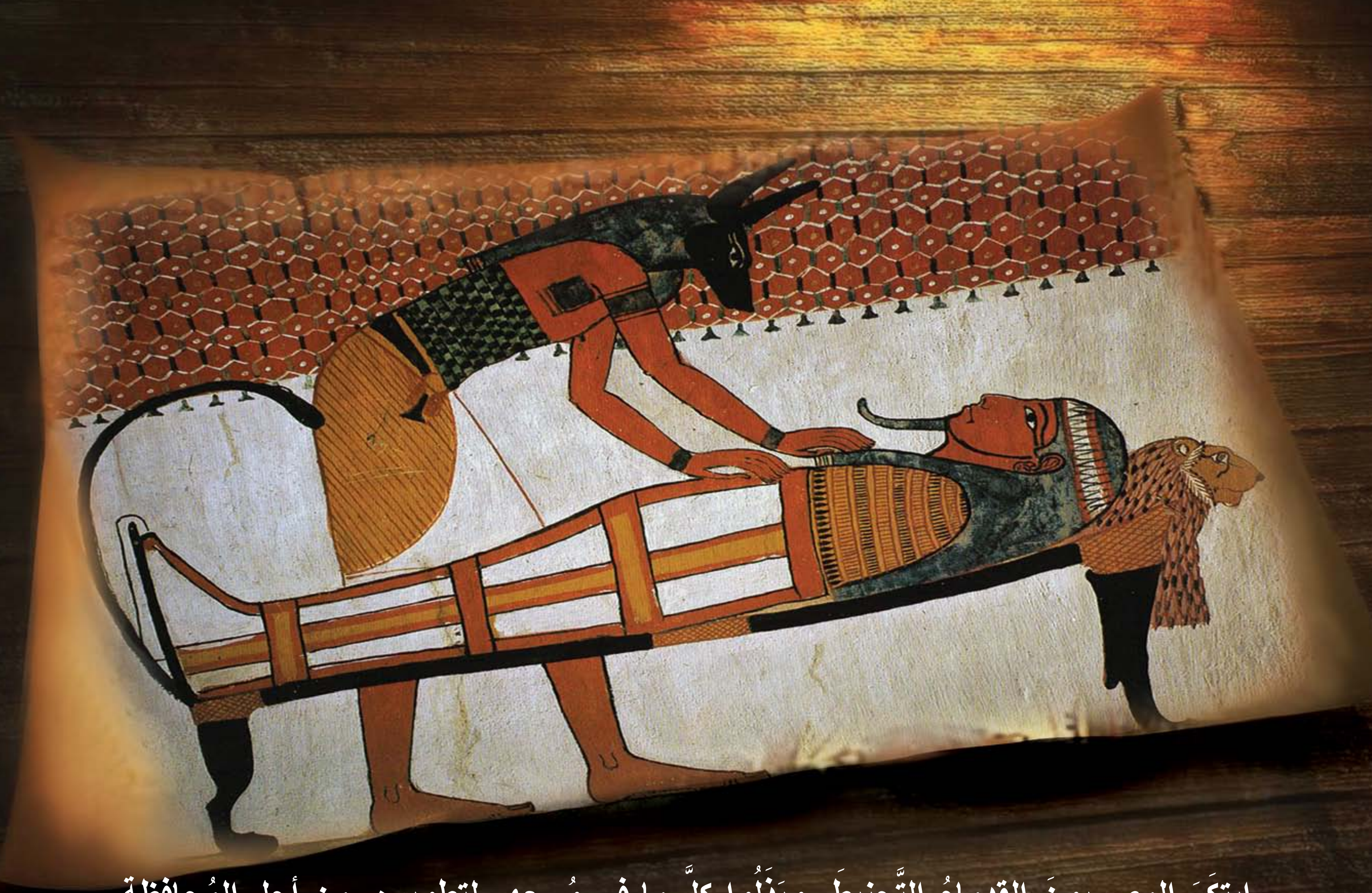


كان للعقيدةِ الدِّينيَّةِ الأثرُ الأكبرُ على الحياةِ الاجتماعيَّةِ عند الفراعنةِ، فمن الثَّوابتِ الإيمانيَّةِ للعقيدةِ نَسَجَ المصريُّ القديمُ أخلاقَهُ وقيمَهُ ومبادِئَهُ، وراعَى في جميعِ أعمالِهِ الدُّنيويَّةِ أنَّه سيرحلُ يومًا إلى العالمِ الآخرِ، وأنَّ مصيرَهُ ونصيبَهُ من السَّعادةِ الأبديَّةِ أو الشَّقاءِ الأبديِّ يَتَوقَّفُ على ما سوفَ تَقُولُهُ رُوحُهُ أمامَ محكمةِ الآلهةِ في الآخرةِ، إذ يجبُ أنْ تُؤَكِّدَ رُوحُهُ براءَتَهُ من كل ذنبٍ ومعصيةٍ: "أنا لم أقتُلْ، أنا لم أسرقْ.. أنا لم أكذبْ.. أنا لم أكنْ مُتكبرًا.. أنا لم أمنعِ الخُبزَ عن جائعٍ، ولا الماءَ عن ظمآن..".



كان الإيمانُ بخلودِ الرَّوحِ والحياةِ الآخرةِ، وخضوعِ جميعِ الأعمالِ الدُّنيويَّةِ للثَّوابِ أو العقابِ العاملَ الأساسيَّ في صبغِ الحضارةِ الفرعونيَّةِ بصبغةٍ إنسانيَّةٍ، تحترمُ إرادةَ الإنسانِ، وتَرى في استعبادِهِ وتَسخيرِهِ وإجبارِهِ على فعلِ ما لا يرغبُ جريمةً كُبرى وذنبًا عظيمًا، ولعلَ ذلك هو ما جعلَ أحدَ القُضاةِ في الأسرةِ الخامسةِ ينقشُ على جِدرانِ مقبرتِهِ قولَهُ: "إنَّ جميعَ من عملوا في هذه المقبرةِ نَالُوا أجرَهم كاملاً من خُبزٍ وجُعَّةٍ وزيتٍ وقمحٍ وملابسَ.. كما أنَّني لم أُكْرِهْ أحدًا على العمل".





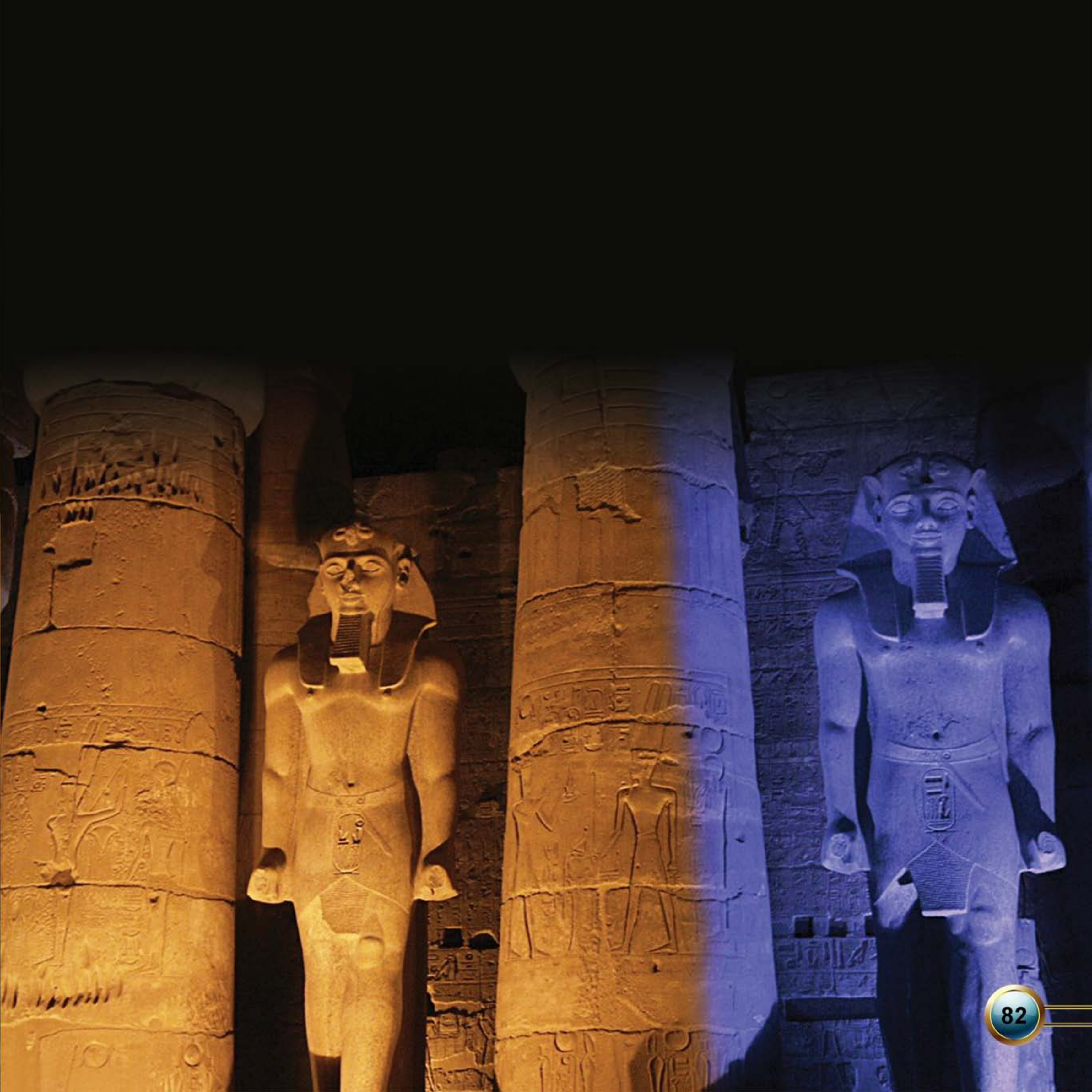
ابتكَرَ المصريونَ القدماءُ التَّحنيطَ، وبَذَلُوا كلَّ ما في وُسعِهم لتطويرِهِ، من أجلِ المُحافظةِ على أجسادِهِم، انتظارًا لعودةِ الرَّوحِ، كما أنفَقوا الأموالَ الطَّائلةَ على تجهيزِ مقابرِهم بكلِّ ما تحتاجُ إليه من أثاثٍ جنائزيٍّ، وأوقفوا الضِّيَاعَ على صيانتِها والعنايةِ بها، بينما حَرَصَ أقرباءُ المُتَوَفَّينَ على تَقديمِ القَرابين لذويِّهم في الأعيادِ والمُناسباتِ، لاعتقادِهِم بانتفاعِ المَوتى بتلك القَرابين، ولو بشكلٍ رمزيٍّ، كما حَرَصُوا على أداءِ الطُّقوسِ والشَّعائرِ التي يحتاجَها المُتوَفُّونَ بأنفسِهم، أو من خلالِ توظيفِ مَنْ يقومُ عنهم بأدائِها.



كان المصريُّ القديمُ يعتقدُ في قدرتِهِ على التَّواصُلِ مع الآلهةِ من خلالِ الكهنةِ، كما كان يعتقدُ في قدرتِهِ على التَّواصُلِ المباشرِ معهم متى أُتِيحَ له ذلك، فكثيرًا ما كان يَعترضُ أحدُهُم موكبَ الإلهِ في عيدِهِ، ويناشِدُهُ أنْ يقضِيَ له حاجتَهُ، أو يُقَدِّمَ له المساعدةَ في العثورِ على مفقودٍ، ولا ينصرفُ حتى يجيبَ التِّمثالُ المحمولُ على أكتافِ الكهنةِ باهتزازةٍ تَعني الموافقةَ، أو أخرى تَعني الرَّفضَ، وهو ما نَلمِسُ صَداه في القُرى المصريَّةِ حتى اليومِ، حيث يَصرخُ القُرويُّ عقبَ تَضرُّعِهِ لأحدِ الأولياءِ، وطلبِهِ قضاءَ حاجتِهِ: "هِزِّ المقامَ يا شيخ"!!



شَيَّدَ المصريُّ القديمُ المعابدَ للآلهةِ، واختصَّ الفراعنةُ تلك المعابدَ بالاهتمامِ والرِّعايةِ، حتى يتسنَّى لها القيامَ بدورِها على الوجهِ الأمثلِ، إذ كان يقومُ على إقامةِ الصَّلواتِ، وتَرتيلِ الأناشيدِ، ومباركةِ الأضاحِي، وأداءِ الطُّقوسِ والواجباتِ اليوميَّةِ جيشٌ كَثيفُ العددِ من الكهنةِ حَلِيقي الرُّؤوس، مِمَّن يَحرصونَ على ارتداءِ جلودِ الحيواناتِ، خاصَّةً في الأعيادِ والمناسباتِ الدِّينيَّةِ، كما كان يلحقُ بالخدمةِ في كلِّ معبدٍ عددٌ كبيرٌ من الموسيقِّياتِ والرَّاقصاتِ والمغنيِّاتِ، يُمثلنَ الحريمَ الإلهيَّ الذي عادةً ما كانت تَرأسُهُ إحدى أميراتِ البيتِ الحاكم.



خَصَّ ملوكُ الفراعنةِ معابدَ مصرَ القديمةِ بالثَّرواتِ، فكان لكلِّ معبدٍ ممتلكاتٌ خاصَّةٌ تمثَّلتْ في مساحاتٍ شاسعةٍ من الأراضي، وقطعانٍ ضخمةٍ من الماشيةِ، ومخازنَ فسيحةٍ مُكدَّسةٍ بالسِّلعِ والمُنتجاتِ التي كان يَصرفُ الكهنةُ من أثمانِها على خدمةِ الإلهِ وعلى أنفسِهم. ولأنَّ الكهنةَ في مصرَ القديمةِ مَثَّلُوا فئةً اجتماعيَّةً مُغلقَةً، يتوارثُ فيها الأبناءُ مراكزَ الآباءِ، ولأنَّ المعابدَ نَمَت من ثرواتِها في عهدِ الدَّولةِ الحديثةِ، إلى حدِّ امتلاكِها لحوَالَيْ ١٠٪ من إجمالي أراضي البلادِ الزِّراعيَّةِ، فقد لَعِبَ رجالُ الدِّينِ في مواقفَ عِدَّةٍ دَورًا رئيسيًّا في توجيهِ سياسةِ البلادِ، وامتلكُوا فيها دائمًا النُّفوذَ والسُّلطة.

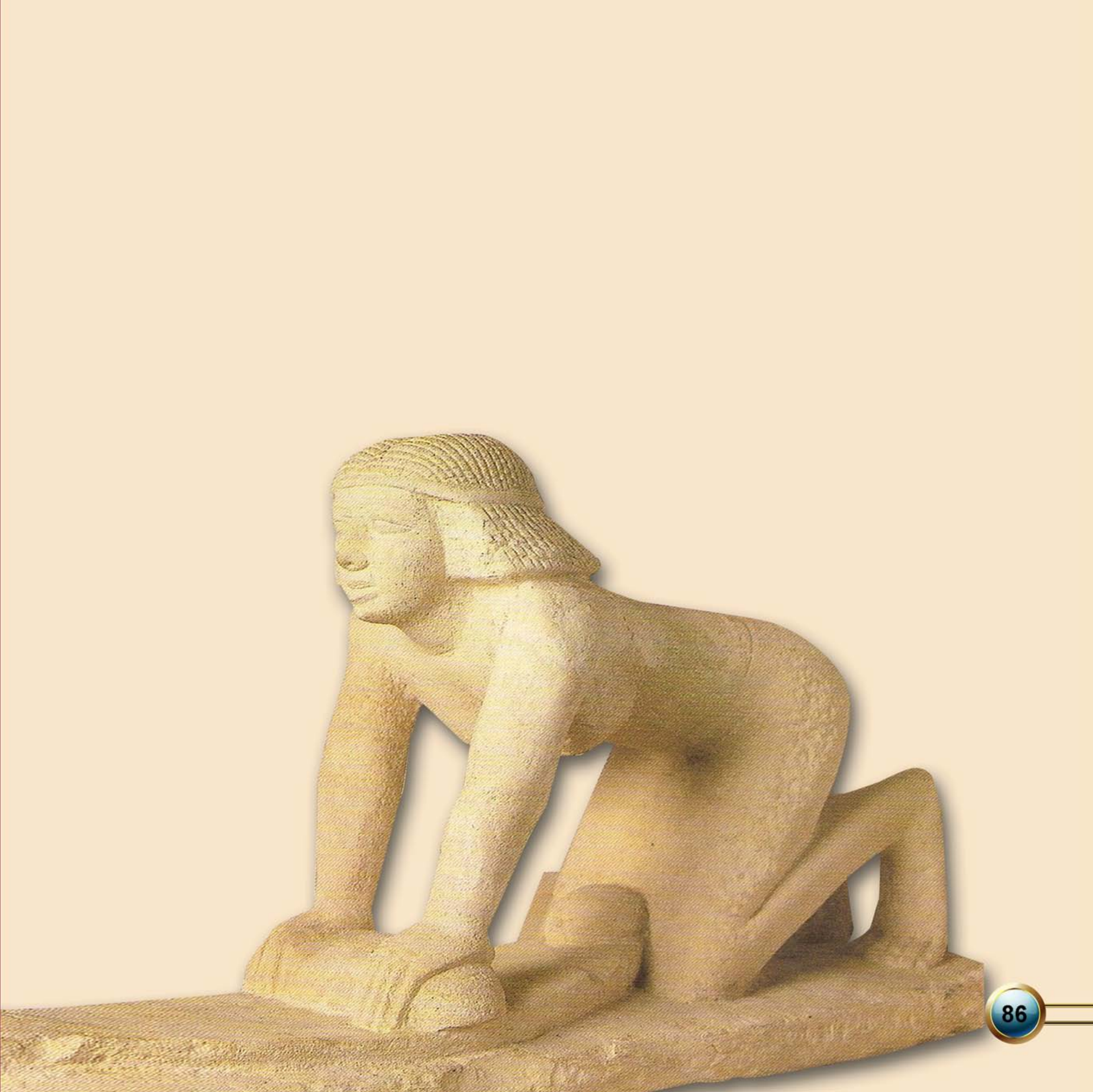




كان المصريُّ القديمُ شديدَ الاهتمامِ برفاهيتِهِ في الحياةِ الدُّنيا، فلم يبخلْ بجهدٍ في سبيلِ جعلِ حياتَهُ أكثرَ يُسرًا وأوفرَ جمالاً، في نفسِ الوقتِ الذي انشغلَ فيه بحياتِهِ الآخرةِ، وأنفقَ من مالِهِ وعمرِهِ الشَّيءَ الكثيرَ من أجلِ الفوزِ بحياةٍ أبديَّةٍ سعيدةٍ، إذ كان لا يتردَّدُ في تخصيصِ الجانبِ الأكبرِ من أموالِهِ التي جاهَدَ طويلاً في كسبِها لتشييدِ مقبرةٍ لائقةٍ، وإعدادِها بكلِّ ما تحتاجُ إليه من أثاثٍ جنائزيٍّ، فكان في ذلك نموذجًا يُحتَذَى لمن يَطمَحونَ إلى إيجادِ صيغةٍ للتَّوازنِ والتَّناغمِ بين ما يبدو للوهلةِ الأولى مُتنافرًا، وغيرَ قابلٍ للتَّوافق.

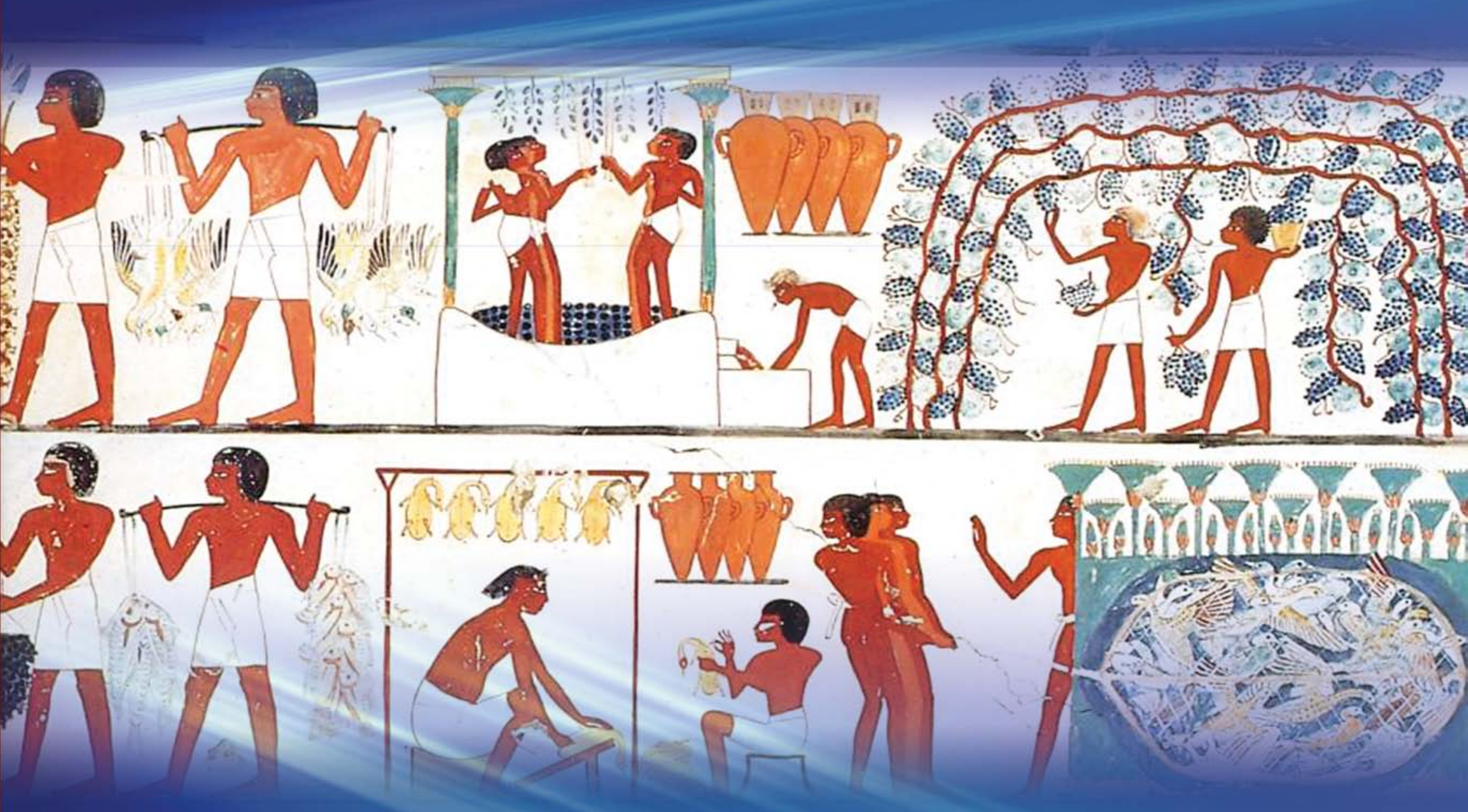
كان الاقتصادُ المصريُّ في أساسِهِ اقتصادًا زراعيًّا، يعتمدُ على استغلالِ ما يحملُهُ الفيضانُ من خصبٍ ومياهٍ، وكانتِ الفِلاحةُ هي العملُ الرئيسيُّ الذي يَشتغلُ به القسمُ الأعظمُ من سكَّانِ وادي ودلتا النِّيلِ، مِمَّا جَعَلَ أعمالَ تنظيمِ الرَّيِّ وشَقِّ التِّرعِ والقنواتِ من أهمِّ واجباتِ حكومةِ البلادِ، ومن أُولى مُبرراتِ وجودِها، ومن أعظمِ مصادرِ سُلطتِها. وإذا كان من المؤكَّدِ استحواذُ الملِكِ كممثِّلٍ إلهيٍّ على جميعِ أراضي مصرَ الزِّراعيَّةِ، فمن المؤكِّدِ أيضًا، وجودُ نوعٍ من أنواعِ الملكيَّةِ الخاصَّةِ التي تَمَتَّعَ به الفَلاحُ المصريُّ القديم.





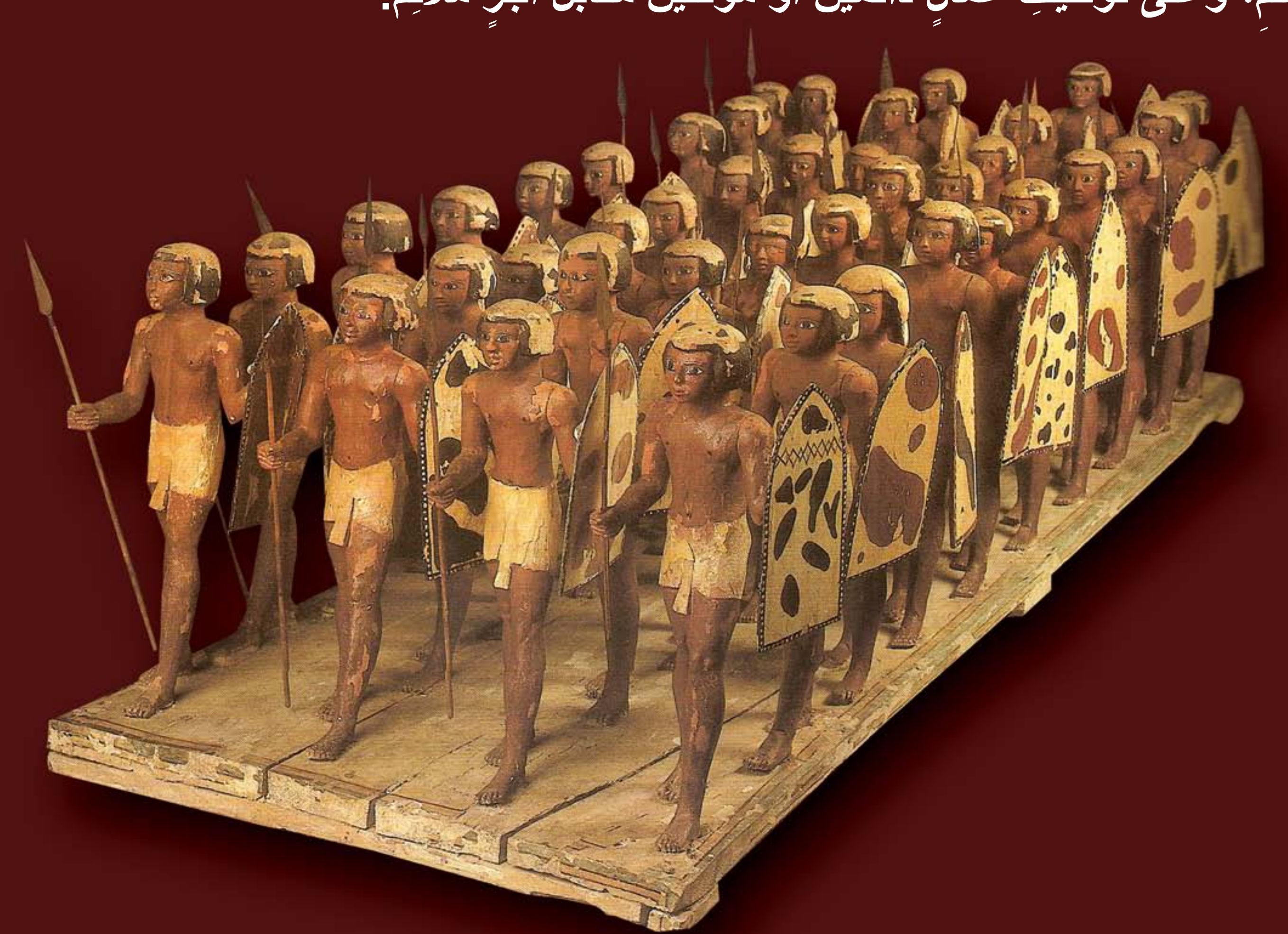
كان نهرُ النِّيلِ الوسيلةَ الرئيسيَّةَ لِنقلِ الأفرادِ والبضائعِ بين مُختلفِ مُقاطعاتِ الدِّلتَا والوادي، وكان الإبحارُ على صَفحتِهِ على ظَهرِ القَواربِ الخَفيفةِ المصنوعةِ من سيقانِ البردي، أو على متنِ السُّفنِ المصنوعةِ من الأخشابِ والمزوَّدةِ بالأشرعةِ، هو الطريقةُ الأكثرُ أمنًا، والأقلُّ تكلفةً لحركةِ التِّجارةِ الدَّاخليَّةِ، كما استخدمَ المصريُّ القديمُ الحميرَ في نقلِ البضائعِ والمسافرينَ برًّا، قبلَ أنْ يَعرِفَ استخدامَ الخيولِ، والعرباتِ الضَّخمةِ التي تَجُرُّها الثِّيرانُ. أما عن التِّجارةِ الخارجيَّةِ، فقد بَرَعَ الفراعنةُ في التِّرحالِ عَبرَ البحارِ، حيث كانت لهم تجارةٌ مزدهرةٌ مع بلادِ "بنت" والسَّاحلِ الفينيقيِّ وجُزرِ البحرِ المتوسط.





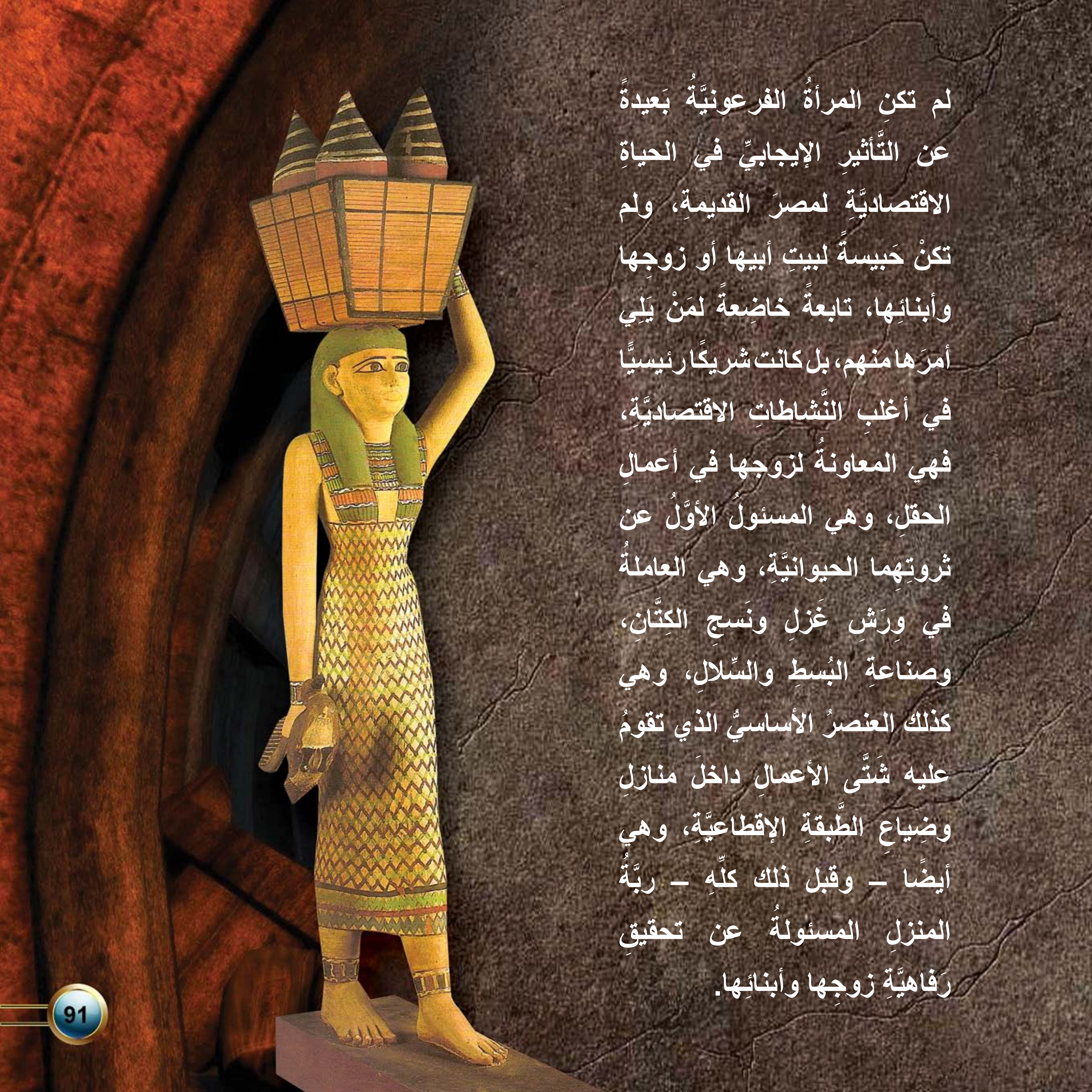
بعيدًا عن الأعمالِ الحرَّةِ التي كان يقومُ بها الصُّنَّاعُ والحرفيُّونَ، كانت جميعُ الأعمالِ الضَّخمةِ التي تَحتاجُ إلى جهودٍ عظيمةٍ وتَكاليفَ باهظةٍ من اختصاصِ الحكومةِ المصريَّةِ القديمةِ، التي كانت تَحتكرُ استغلالَ المناجمِ والمحاجرِ، وتَشييدَ المعابدِ والمقابرِ المَلِكيِّةِ، كما كان لها مصانِعُها الخاصَّةُ، التي يُعهَدُ إليها بتصنيعِ المنتجاتِ الغذائيَّةِ من الضَّرائبِ التي تُسَدَّدُ من الحاصلاتِ الزِّراعيَّةِ، إلى جانبِ تصنيعِ جميعِ ما تحتاجهُ الإدارةُ الحكوميَّةُ والقَصرُ الفرعونيُّ من منسوجاتٍ وأوراقٍ ومُجوهراتٍ وأثاثٍ وأوانٍ وعطور.

يَدُّلُ ما وصلَ إلينا من وثائقَ على تَطوُّرِ الإدارةِ الفرعونيَّةِ تَطوَّرًا مُذهلاً، واعتمادِ الأعمالِ الحكوميَّةِ مُنذ فَجرِ التَّاريخِ على نُظمٍ غَايةً في الدِّقَّةِ والصَّرامةِ، فهناك سجلاتٌ مُعَدَّةٌ لِتدوينِ أسماءِ العُمَّالِ وما يُكَلَّفُونَ بِإنجازِهِ، وهناك مُراقِبٌ خاصٌ لكلِّ مجموعةٍ منهم. وقد يكونُ من المُحتملِ تَسخيرُ الفراعنةِ لبعضِ أسرَى الحربِ جنبًا إلى جَنبٍ مع المحكومِ عليهم بعقوبةِ الأشغالِ من المواطنينَ المصريينَ في أداءِ الأعمالِ الشَّاقَّةِ، غير أنَّهم لم يُمَثِّلُوا يومًا سوى جانبٍ ثانويٍّ من قوَّةِ العملِ التي كانت تَعتمدُ في الأساسِ على تَشغيلِ جُنودِ الجيشِ في أوقاتِ السِّلمِ، وعلى توظيفِ عُمَّالٍ دائمينَ أو مُؤقَّتينَ مُقابلَ أجرٍ مُلائِمٍ.





بالإضافةِ إلى الأعمالِ الحُرَّةِ والأعمالِ الحكوميَّةِ، وُجِدَ في مصرَ القديمةِ نَوعٌ ثالثٌ من الأعمالِ التي انتَظَمَت في منازلَ وضِياعِ الطَّبقةِ الإقطاعيَّةِ التي عَرَفَها المجتمعُ الفرعونيُّ بوضوحٍ مع بدايةِ الأُسرةِ الخامسةِ، حيثُ انخَرَطَت أعدادٌ كبيرةٌ من الصُّنَّاعِ والحِرفيينَ في العملِ لَدَى هؤلاءِ الإقطاعيينَ، فكانَ بعضُهم من الأسرَى الذين يَتِمُّ الحصولُ عليهم كمنحةٍ من المَلِكِ، والبعضُ الآخرُ عَبيدًا أجانبَ يجلِبُهُم تُجَّارُ الرَّقيقِ، بينما كان البعضُ الثَّالثُّ – وهو الغالبُ – حِرفيينَ مصريينَ أحرارًا، يعملونَ بعقودٍ موثَّقةٍ وأجورٍ مُجزيَةٍ.



لم تكنِ المرأةُ الفرعونيَّةُ بَعيدةً عن التَّأثيرِ الإيجابيِّ في الحياةِ الاقتصاديَّةِ لمصرَ القديمةِ، ولم تكنْ حَبيسةً لبيتِ أبيها أو زوجِها وأبنائِها، تابعةً خاضِعةً لمَنْ يَلِي أمرَها منهم، بل كانت شريكًا رئيسيًّا في أغلبِ النَّشاطاتِ الاقتصاديَّةِ، فهي المعاونةُ لزوجها في أعمالِ الحقلِ، وهي المسئولُ الأوَّلُ عن ثروتِهما الحيوانيَّةِ، وهي العاملةُ في وِرَشِ غَزلِ ونَسجِ الكِتَّانِ، وصناعةِ البُسطِ والسِّلالِ، وهي كذلك العنصرُ الأساسيُّ الذي تقومُ عليه شَتَّى الأعمالِ داخلَ منازلِ وضِياعِ الطَّبقةِ الإقطاعيَّةِ، وهي أيضًا – وقبل ذلك كلِّهِ – ربَّةُ المنزلِ المسئولةُ عن تحقيقِ رَفاهيَّةِ زوجِها وأبنائِها.





من المُرَّجحِ أنْ يكونَ المصريُّ القديمُ هو أوَّلُ من تَوصَّلَ إلى إيجادِ وحَداتٍ نَقديَّةٍ ذاتِ أوزانٍ مُحددَّةٍ من المَعادنِ الثَّمينةِ، حيث كانت تلك الوَحداتُ المَعدنيَّةُ تُعايَرُ بِدِقَّةٍ مُتناهيةٍ بواسطةِ موازينَ تُزيِّنُها رأسُ "ماعت" إلهةُ العدلِ، وكان هناك الكثيرُ من العياراتِ الرَّسميَّةِ مثلُ الـ"شعت" الذي يُعادِلُ حَوَالي سبعةٍ ونصفِ جِرامَاتٍ، والـ"دبن" الذي يُساوي اثني عَشرَ شعتًا، ويُعادِلَ حَوالَي تسعينَ جرامًا. وقد لُوحِظَ في الرُّسوماتِ والنُّقوشِ الفرعونيَّةِ التي وَصَفَتَ الأسواقَ وحركةَ البيعِ والشِّراءِ وجودُ مَنْ يحملونَ صَناديقَ صغيرةً، يُعتَقَدُ أنَّها تحتوي على قطعِ المعدنِ المُعايرَةِ، والتي تَقومُ مَقامَ العُملةِ النَّقديَّة.



لا يعني استخدامُ المصريِّ القديمِ للمعادنِ كوسيطٍ نَقديٍّ، استِخدَامَهُ لذلك الوسيطِ فِعليًّا في جميعِ مُعاملاتِه التِّجاريَّةِ، إذ كان يَكفي وجودُ الوسيطِ، واتِّفاقُ طَرفي المُعاملةِ على قيمةٍ مُحددَّةٍ لِسلعةِ كلٍّ منهما، لإتمامِ المُبادلةِ دونَ الحاجةِ إلى استخدامٍ فِعليٍّ للوسيطِ، الذي كانَ استدعاءُ وجودِه ضَروريًّا لضمانِ دِقَّةِ تَقديرِ القيمةِ وتَيسيرِ المُعاملةِ، كما كان ضروريًّا لضبطِ أداءِ الحُكومةِ، وتَقديرِ رَواتبِ المُوظفينَ، التي عَادةً ما كانت تُسَدَّدُ عَينًا من السِّلعِ والمُنتجاتِ، وتَقديرِ الضَّرائبِ التي كانت تُجبَى نَقدًا أو عَينًا، بحَسبِ المُتوافرِ لَدَى دافعِ الضَّريبةِ.

كان السُّوقُ الذي يُقَامُ في مَوضعٍ وزَمانٍ مُحدَّديْنِ في كلِّ مَدينةٍ وقَريةٍ فرعونيَّةٍ ساحةَ العرضِ والطَّلبِ التي تُحَدِّدُ القيمَ العادلةَ للسِّلعِ والمُنتجاتِ، حيثُ تَدورُ المساوماتُ، وتُطَولُ المُناقشاتُ حَولَ رَفعِ قيمةِ سِلعةٍ هنا، وخفضِ قِيمةِ سلعةٍ هناك. وإذا كانَ في السُّوقِ بعضُ مِمَّن يحملونَ صناديقَهم الصَّغيرةَ التي تَحتوي على قطعِ النَّقدِ المَعدنيِّ، فإنَّ الغَالبيةَ لا بدَّ وأنْ تكونَ من البُسطاءِ الذين جَاءوا إلى السُّوقِ يحملونَ شيئًا من حاصلاتِهم الزِّراعيَّةِ أو مصنوعاتِهم اليدويَّةِ، ليستَبدلُوها بسلعٍ ومنتجاتٍ هُم في أمسِّ الحاجةِ إليها.





أثَّرتِ العَقيدةُ الدِّينيَّةُ للمجتمعِ المصريِّ القديمِ في شَتَّى مناحِي الحياةِ، فكانتِ المنبعَ الذي اشتقَّت منه مَنظُومةَ الأخلاقيَّاتِ والقيمِ، والأساسَ الذي قَامَت عليه نُظمُ الحُكمِ والإدارةِ، وكانت المُلهمَ المُحرِّكَ للفنونِ والآدابِ. وفيما يَخُصُّ العمارةَ الفرعونيَّةَ، فَرَضَتِ العقيدةُ على المصريينَ أنْ يُشيِّدوا منازِلَهُم جِهةَ شُروقِ الشَّمس، بينما يُشَيِّدوا مَقابِرَهُم جهةَ غُروبِها، وأنْ لا يَحفَلوا كثيرًا بمتانةِ المنازِلِ الدُّنيويَّةِ وقدرتِها على البقاءِ، في مُقابلِ بَذلِ كلِّ الجُهدِ من أجلِ خُلودِ العمارةِ الأبديَّةِ، وضمانِ أنْ تَظلَّ مقابرُهُم صامدةً في وجهِ الزَّمن.

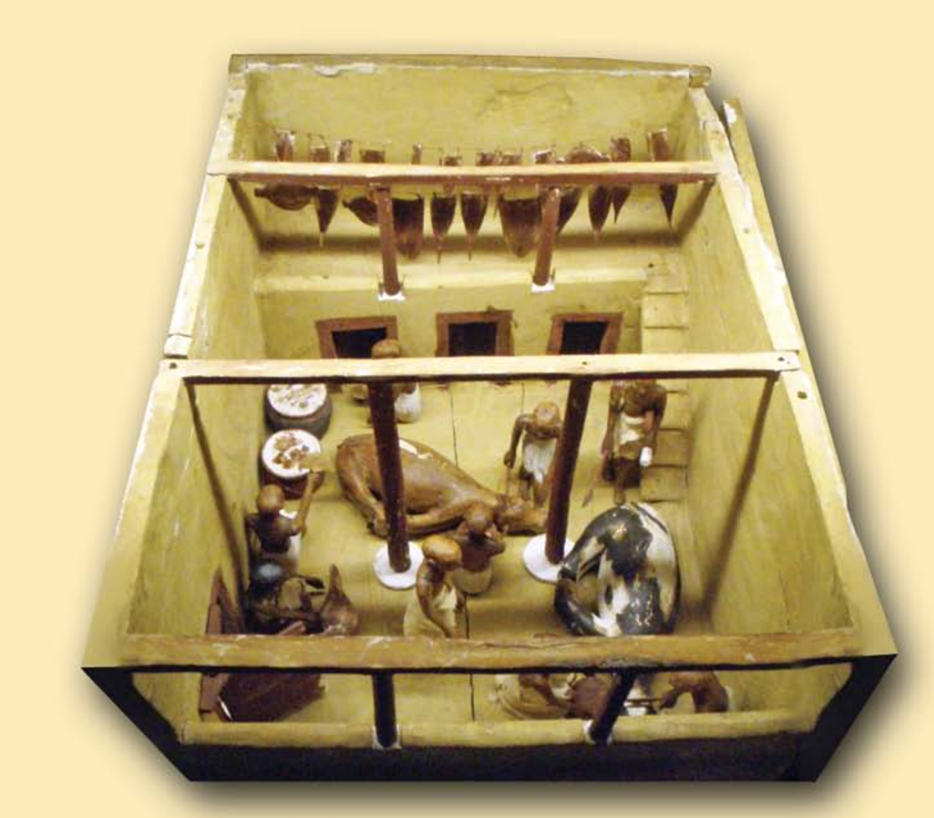


سَكَنَ المصريونَ الأوائِلُ – كغيرِهِم من الشُّعوبِ البدائيَّةِ – الكهوفَ، قبل أنْ يستَقرَّ بهم المُقامُ على ضِفافِ النِّيلِ، ويُشَيِّدونَ بجوارِ حقولِهم ومزارِعِهِم وزرائِبِ حيواناتِهم المُستأنسةِ المنازلَ من سيقانِ النَّباتاتِ المَكسيَّةِ بالطِّينِ، غَيرَ أنَّهم سَرعَانَ ما اهتَدَوا قبل عهودِ الأُسراتِ إلى صناعةِ الطُّوبِ اللَبِنِ، واستَخدَموه في تشييدِ منازلِهم التي تَطَوَّرت مع مُضيِّ الزَّمنِ، فازدَادَت اتِّساعًا، وضَمَّت عَددًا من الغُرفِ المَسقوفةِ بالأخشابِ، والمَطليَّةِ جِدرانُها بالجِصِّ المُزَيَّنِ بالزَخارفِ والألوان.

كانت منازلُ البسطاءِ غالبًا ما تُشَيَّدُ من طابقٍ واحدٍ، وتتألَّفُ من ردهةٍ تُحيطُ بها بعضُ الغُرفِ، بينما كانت منازلُ الأثرياءِ عظيمةَ المساحةِ، ومُشيَّدةً من أكثرَ من طَابقٍ، وعادةً ما كان يُؤَدِّي مَدخَلُها الرَّئيسيُّ إلى فناءٍ مُتَّسعٍ يَحفَلُ بالأشجارِ والأزهارِ والبِرَكِ الصِّناعيَّةِ، حيثُ يَصلُ الفِناءُ بالزَّائرِ إلى قسمِ الرِّجالِ الذي يَضمُّ بَهوًا للأعمدةِ وغُرفةً للاستِقبالِ، وأُخرى لِتَناولِ الطَّعامِ، ويَنتَهي في جانبٍ منه بِدَرجٍ يُؤَدِّي للأدوارِ العُليا، حيثُ القسمُ الخاصُّ بالسَّيِّداتِ، بينما تُحيطُ بالمَبنَى الرئيسيِّ، مَبانٍ ثانويةٍ للخدمِ والمَخَازن.



ضَمَّت منازلُ الأثرياءِ في مصرَ القديمةِ غُرفًا مُتعدِّدةً لمُمارسةِ كَافَّةِ أنواعِ الحرفِ والصِّناعاتِ الصَّغيرةِ، فيما يُشْبِهُ المُجمَّعَ الحِرَفيَّ الصَّغيرَ، الذي يُوفِّرُ لِسُكَّانِ المنزلِ حاجاتِهم من المنسوجاتِ والنِّعالِ والبُسْطِ والمصنوعاتِ الغذائيَّةِ المتنوِّعةِ، وزُوِّدت تلك المنازلُ بحجراتٍ مُخصصَّةٍ لمُمارسةِ كافَّةِ فنونِ الطَّبخِ، بالإضافةِ إلى احتوائِها على غُرفٍ لِقَضاءِ الحاجةِ غايَةً في النَّظافةِ والتَّطورِ، وغرفٍ مُنفصلةٍ للاستحمامِ تَتَمتَّعُ بنظامٍ دقيقٍ للصَّرفِ الصِّحِّي.







ابتَكَرَ المصريُّ القَديمُ ما يُلَبِّي رَغباتِهِ من أثاثٍ، وبَرِعَ في استخدامِ الأخشابِ والمعادنِ والعاجِ وغيرها من الموادِّ الأوليَّةِ في صُنعِ وتَزيينِ أدواتِهِ المنزليَّةِ، فكانَ يَقضِي ليلَهُ على أَسِرَّةٍ خَشبيَّةٍ، مُستعينًا بأغطيةٍ من الكِتَّانِ المُلَوَّنِ، ووسائدَ من الجلدِ أو القماشِ المَحشوّ بالرِّيشِ، لا تَختَلفُ كثيرًا عما نَستَخدِمُهُ اليومَ، وكانَ يَجلسُ على مقاعدِ وثيرةٍ، ويَتَناولُ طعامَهُ على الموائدِ الخَشبيَّةِ أو الحجريَّةِ في آنيةٍ من الفُخَّارِ أو النَّحاسِ، ويَحفظُ مَلابَسهُ وأدواتِ زِينتهِ في صَناديقَ خَشبيَّةٍ، ويُضِيءُ حُجراتِهِ بمصابيحَ تُوقَدُ بالزَّيتِ، ويَشِعُّ ضَوءَ فَتيلِها من خلالِ المَرمرِ الشَّفَّاف.

لم يكنِ المصريُّ في عصورِهِ الأُولى يَمتلكُ من الوقتِ أو الإمكانيَّاتِ المادِّيَّةِ ما يُتيحُ له تهذيبَ شَعرِ الرَّأسِ واللِحيَةِ، فاعتادَ أنْ يُطلِقَ شَعرَ رَأسِهِ، لِيبدو طويلاً مُسترسَلاً، وأن يَهمِلَ لحيَتَهُ، لِتَصِلَ إلى صَدرِهِ بنهايةٍ مُدبَّبةٍ، غيرَ أنَّهُ لم يَهمِلِ البَحثَ عمَّا يسترُ عورَتَهُ، ويقِي جسدَهُ حَرَّ الصَّيفِ وبرودَةَ الشِّتاءِ، وسَرْعَانَ ما اتَّخَذَ من جلودِ الحيواناتِ لِباسًا لهُ، قبلَ أنْ يَهتَدِيَ إلى غَزلِ خُيوطِ الكِتَّانِ ونَسجِ الأقمشةِ وحِياكةِ الملابسِ، التي تَطوَّرتْ من عصرٍ إلى آخرَ، وتَنَوَّعت بحسبِ اختلافِ المكانةِ الاجتماعيَّةِ والقُدرةِ المادِّيَّة.



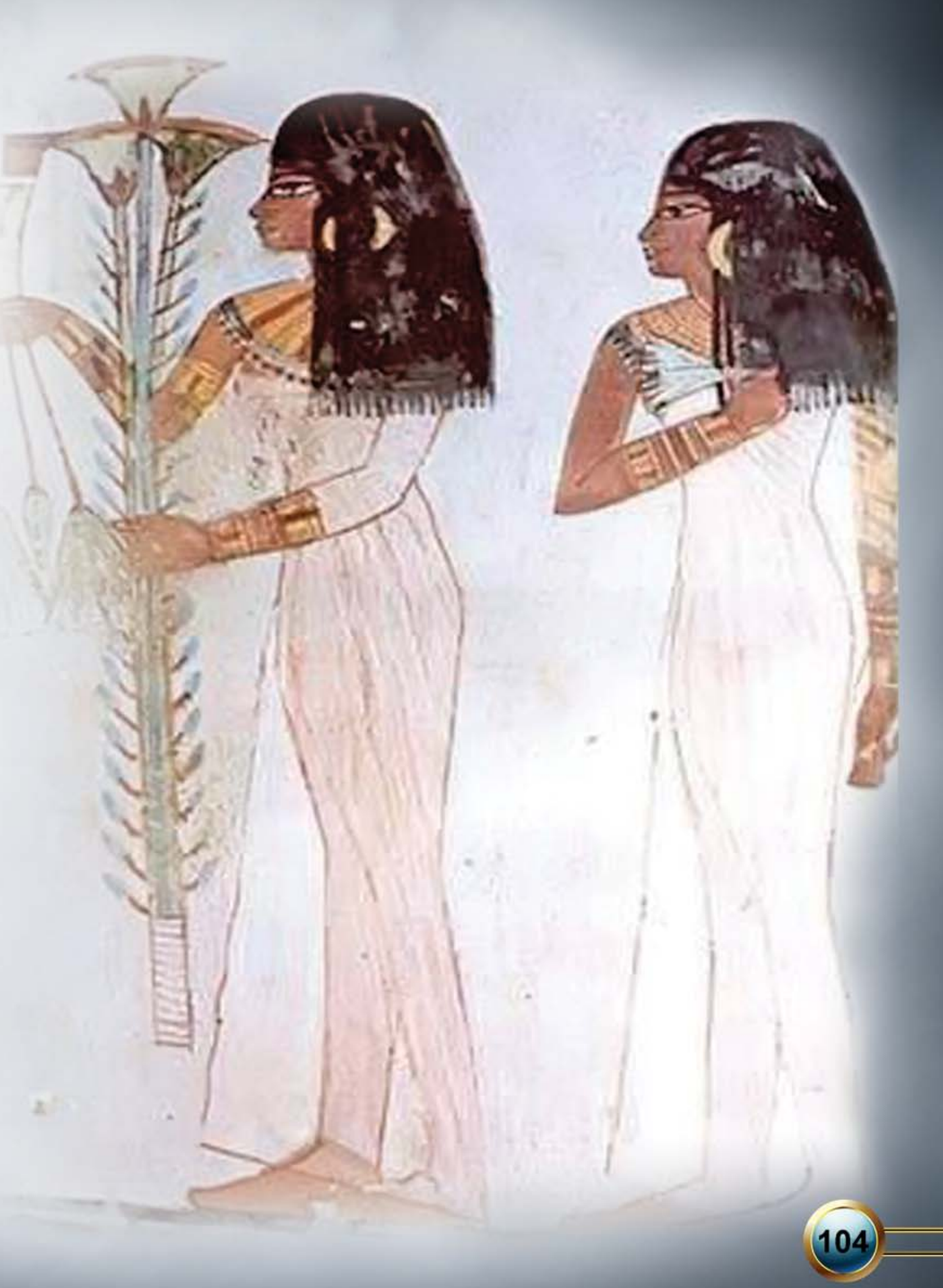


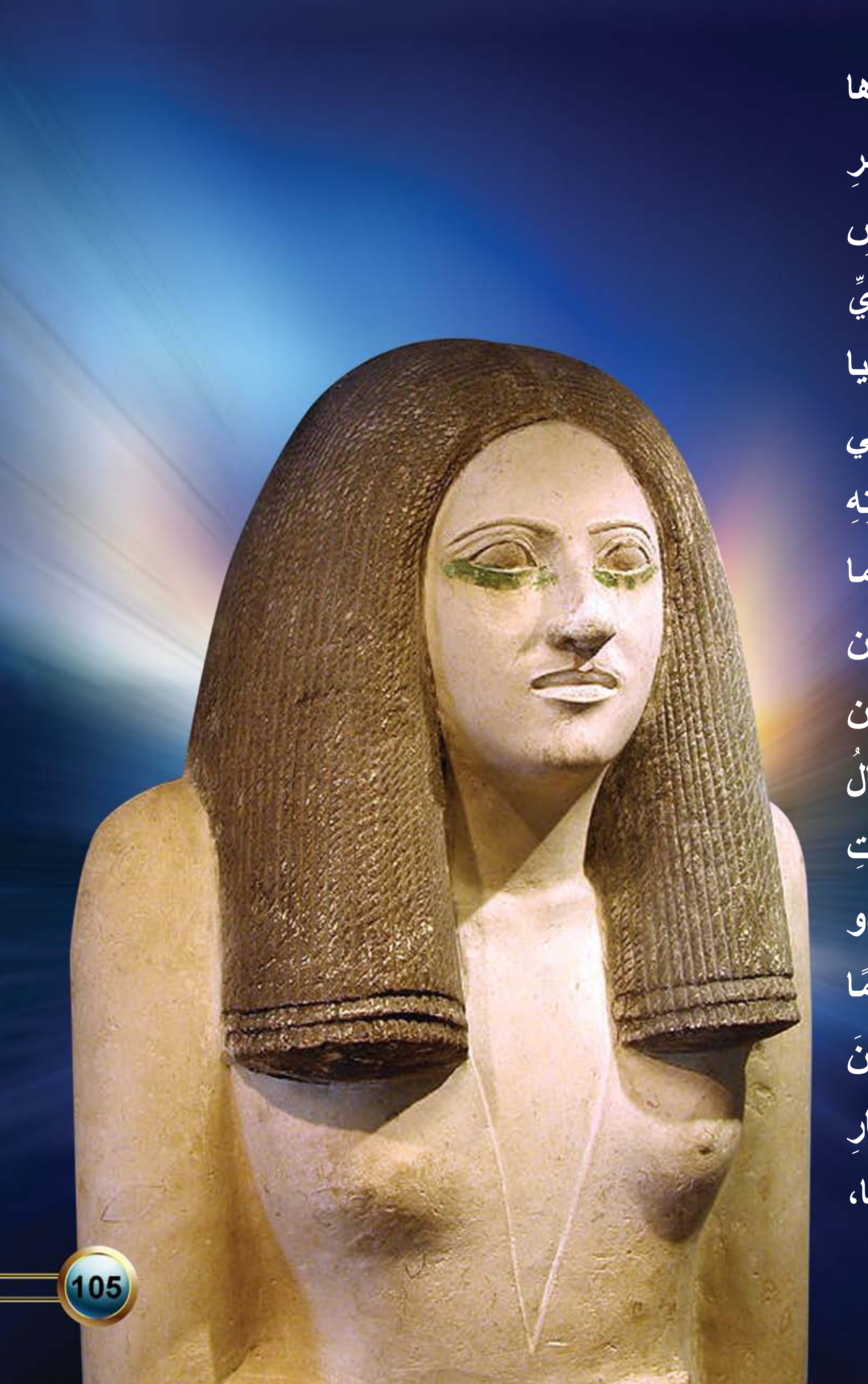
مُنذُ ما قبلَ عُصورِ الأُسراتِ، انتَشَرَت بين المصريينَ القُدماءِ عادةُ حلاقةِ اللِحَى، وتَقصيرِ شَعرِ الرَّأسِ، غيرَ أنَّ تَمَسُّكَهم الدائِمَ بالمحافظةِ على التَّقاليدِ، جَعَلَهَم يُحافظونَ بشكلٍ كبيرٍ على تَعرِيةِ الصَّدرِ الذي كانَ أكثَرَ مُناسبةً لأجدادِهم، مِمَّنِ اضْطُروا إلى ممارسةِ العملِ الشَّاقِ في جَوٍّ شَديدِ الحرارةِ، كما كانوا يَحرصونَ في المناسباتِ الدِّينيَّةِ والرَّسميَّةِ على ارتداءِ الشُّعورِ واللِحَى المُستعارَةِ، حتى يكونوا أكثَرَ شَبهًا بالأجدادِ الذين يُضمِرُون لهم الاحترامَ والتَّبجيلَ، ويَنظِرونَ إليهم نَظرةَ إجلالٍ تَقتربُ أحيانًا من حَدِّ التَّقديس.



شَأنهنَّ شأنُ كلِّ بناتِ حواءَ في كافَّةِ بقاعِ الدُّنيا وفي جَميعِ العُصورِ، اهتمَّت نساءُ الفراعنةِ اهتمامًا كبيرًا بالتَّجمُّلِ والزِّينةِ، واستَعنَّ بجميعِ ما تُوفِّرهُ البيئةُ من موادَّ طَبيعيَّةٍ، وبكلِّ ما يَتمُّ اكتِشافُهُ أو ابتِكَارُهُ من أدواتٍ ومساحيقَ يُمكنُ أنْ تُكسِبُهُنَّ مَظهرًا أكثرَ بَهاءً وجاذبيَّةً، وحَرَصْنَ على أن يَستخدمْنَ من مُختلفِ أنواعِ الخِضابِ والطُّيوبِ والحُلِيِّ، ومُختلفِ أنـواعِ الثِّيابِ والشُّعورِ المُستعارةِ، ما يَتَنَاسبُ مع طَبيعتِهنَّ ومقاييسِ الجمالِ السائدةِ في عصورِهنَّ، وما يتلاءَمُ أيضًا مع ما تُوفِّرُهُ لهنَّ طَبقاتُهُنَّ الاجتماعيَّةُ من قُدرةٍ مَادِّيَّة.

اختَلَفَت أزياءُ النِّساءِ في مصرَ القديمةِ، وتَنـوَّعت مـا بين الضَّيقَّةِ والفَضْفَاضَةِ، وما بين البَسيطةِ والمُثقَّلَةِ بمُختلفِ أنواعِ التَّمَوُّجاتِ والثَّنياتِ، على أنَّ أغلبَهَا كان يُصْنَعُ من النَّسيجِ الكِتَّانِيِّ ذي اللَونِ الواحدِ، وكانَ الأبيضُ هو اللَونُ المُفضَّلُ لَدَى المصرِّياتِ القُدماءِ، مع إمكانيَّةِ استخدامِ الألوانِ المُتعددِّةِ في الأشرطةِ والأحزمةِ الموشاةِ أو المرصَّعةِ. وأغلبُ الظَّنِ أنَّهُ لم تكُنْ هناكَ وَظيفةٌ لِحائكِ الثِّيابِ بين طَبقاتِ المُجتمعِ الدُّنيا والمتوسطِّةِ في مصرَ القديمةِ، حيثُ كانَ من بين مَهامِّ الأمِّ أن تُؤَدِّيَ تلك الوظيفةَ لجميعِ أفرادِ عائلتِها.





أَوْلَتِ المصريَّةُ القديمةُ شَعرَها عنايةً فائقةً منذ ما قبلَ عصرِ الأُسرَاتِ، وعلى الرَّغمِ من حرصِ جميعِ طَبقاتِ المجتمعِ المصريِّ القديمِ – بما فيها الطَّبقاتُ الدُّنيا التي تَضمُّ الخادماتِ والعاملاتِ في المهنِ الشَّاقَّةِ – على ضمانِ نَظافتِهِ وصحَّتِهِ وحيويَّتِهِ، وتغذيتِهِ بكلِّ ما يُمكنُ أن يَزيدَهُ نُعومةً ولمَعانًا من مُختلفِ أنواعِ الزِّيوتِ، شَاعَ بين سيِّداتِ الطَّبقاتِ الرَّاقيةِ استعمالُ الشَّعرِ المُستعارِ في السَّهراتِ والمَحافلِ العامَّةِ، حيثُ كانَ يُبدو مُرسلاً حتى الرَّدفينِ، أو مَضمومًا في جَدائلَ طَويلةٍ، وكثيرًا ما كانَ يُستَعاضُ عن ثِقلِ الشَّعرِ المُستعارِ بخُصلاتٍ وضفائرَ أخفَّ وَزنًا، تُضَافُ إلى الشَّعرِ الطَّبيعي.



تَفَنَّــنَ المصريُّ القَديــمُ في صناعةِ مَســاحيقِ التَّجميــلِ، لكــي يُرضِيَ تَطلُّعــاتِ نســاءِ الفراعنةِ، ويُشــبِعُ رَغبتَهُنَّ في التَّجمُّلِ، فكانتِ المصريَّةُ القديمةُ تُزَجِّجُ حاجبيْهَا وتُظَلِّلُ جفنيْهَا وأهدابَ عينيهَا بالكُحلِ الأسودِ، الذي تُمَــدُّ خُطوطُهُ إلى الخارجِ، حتى تَبدو العينانِ في انعكاسِــهِما على المَرايا المصنوعــةِ من البُرونــزِ المصقولِ أكثرَ اتِّساعًا، مع تَلوينِ أسفلِ الجِفونِ بالكُحــلِ الأخضرِ، وصَبغِ الشَّــفتَّينِ والوَجْنتَينِ بحُمرةِ العَقيقِ، وتَخَضيبِ الكفَّينِ والقَدميــنِ بالحِنَّاءِ. ولم يكنِ التَّجَمُّلُ حِكرًا على الطَّبقاتِ الموسرةِ في مصرَ القديمةِ، فحتى الطَّبقاتِ الدُّنيا كان مُتاحًا لها ما يُمكنُ استخدامُهُ من كُحلٍ ومَساحيقَ رَخيصةِ الثَّمن.





أَبـــدَعَ الفنَّانُ المصـــريُّ القديمُ في صياغةِ مجموعاتٍ رائعةٍ من الحُليِّ المصنـــوعِ من المعادنِ النَّفيســـةِ والأحجارِ الكريمةِ وشِبهِ الكريمةِ، فتَزَيَّنَت نســـاءُ الفراعنـــةِ بكلِّ ما يستَطعنَ امتلاكَهُ من أساورَ وقلائدَ وأقراطٍ وخلاخيـــلَ وخواتمَ وتمائمَ ودبابيـــسَ للشَّـــعرِ، كمـــا حرصنَ على تَطويـــقِ جِيدِهـــنَّ وجَبينِهِنَّ ورؤوسِـــهنَّ بالزُّهـــورِ، وتَعطيرِ أفواهِهنَ وأنفاســـهنَّ باللَدائنِ ذاتِ النَّكهاتِ الطَيِّبةِ، واستخدامِ مَخروطِ الشَّـــحمِ العطريِّ الذي يُوضَعُ فوقَ الشَّـــعرِ المُســـتعارِ، ويذوبُ ببطءٍ بفعلِ حرارةِ الرَّأسِ، ناشِـــرًا شَذَاه فيما حَوله.





كان أغلـــبُ المصرييـــنَ القُدماءِ حَليقِــي الشَّــوارِبِ واللِحَى، إلا في حــالاتٍ نادرةٍ اســتَحَبَّ فيها البعضُ الاحتفاظَ بشـــاربٍ دَقيقٍ يَمتَــدُّ بامتدادِ الشِّــفَّةِ العُليا، مع الاســتعانةِ باللِحَى المُســتعارةِ مُتعــددةِ الأطــوالِ والهيئاتِ في المُناسباتِ الرَّسميَّةِ والدِّينيَّةِ، أمَّا غطاءُ الرَّأسِ المُخطَّطِ الذي يَظهرُ في أغلــبِ الرُّســوماتِ الحَديثةِ والمــوادِّ الفِلميَّةِ التــي تَتَعَرَّضُ للفراعنـــةِ، فالحقيقــةُ أنَّـــهُ كان قاصِرًا على الملوكِ دونَ العامَّةِ، الذيــن كانوا يَتركونَ رُؤوسَـــهم عاريةً، مع الحرصِ على تقصيرِ الشَّــعرِ، بينما كان الكَهنةُ حَليقِي الــرُّؤوس تمامًا، وِفقًــا للتَّعاليم الدِّينيَّة.





اهتمَّ المصـــريُّ القديمُ بالنَّظافةِ الشَّـــخصيَّةِ، وتَعَــددَت لديــه أصنـــافُ الدُّهــونِ والزِّيــوتِ المُرطِّبةِ للجلدِ، والتي لم يقتَصرِ استعمالُها على النِّساءِ، كما لم يَقتَصرِ استخدامُ الكُحلِ عَليهنَّ، بل تَعدَّاهُنَّ إلـــى الرِّجالِ، ولكن بشكلٍ مُخفَّفٍ، وبهدفِ الوقايةِ من أمراضِ العُيونِ. وبالإضافةِ إلى انتشـــارِ اســـتخدامِ العُطورِ بين الجِنسينِ، شَاعَ بينهما أيضًا اســـتخدامُ الفَراجينِ المصنوعةِ من بعضِ المـــوادِّ النَّباتيَّةِ في تَنظيــفِ الأســنانِ، كما شَـــاعَ اســـتخدامُ النِّعـــالِ المصنوعةِ من الجُلــودِ أو الأليافِ النَّباتيَّةِ المَجدُولة.

كان المصريُّ ولا يزالُ من أكثرِ شُعوبِ الأرضِ وَلَعًا بإقامةِ الأعيادِ والاحتفالاتِ العامَّةِ، فقد أُثْقِلَ التَّقويمُ الفرعونيِّ بالاحتفالاتِ العامَّةِ التي تُمنَحُ فيها العُطلاتُ الرَّسميَّةُ الموزَّعَةُ على مدارِ العامِ، والتي يَخرجُ فيها المصريونَ للمُتعةِ والتَّرويحِ، إلى جانبِ تَعَدُّدِ الاحتفالاتِ الخاصَّةِ بالمُقاطعاتِ والمُدنِ المُختلفةِ، التي لا يتمُّ الاحتفالُ بها إلا في نطاقِها الضَّيِّقِ، كالاحتفالِ بتزاورِ الآلهةِ، وانتقالِ الموكبِ المُقدَّسِ من معبدٍ إلى آخرَ عبرَ صفحةِ النِّيلِ، أو الاحتفالِ بأعيادِ الآلهةِ المَحليَّةِ، وهو ما يُشبهُ في طُقوسِهِ كثيرًا الاحتفالَ بموالدِ الأولياءِ في مصرَ المُعاصرة.

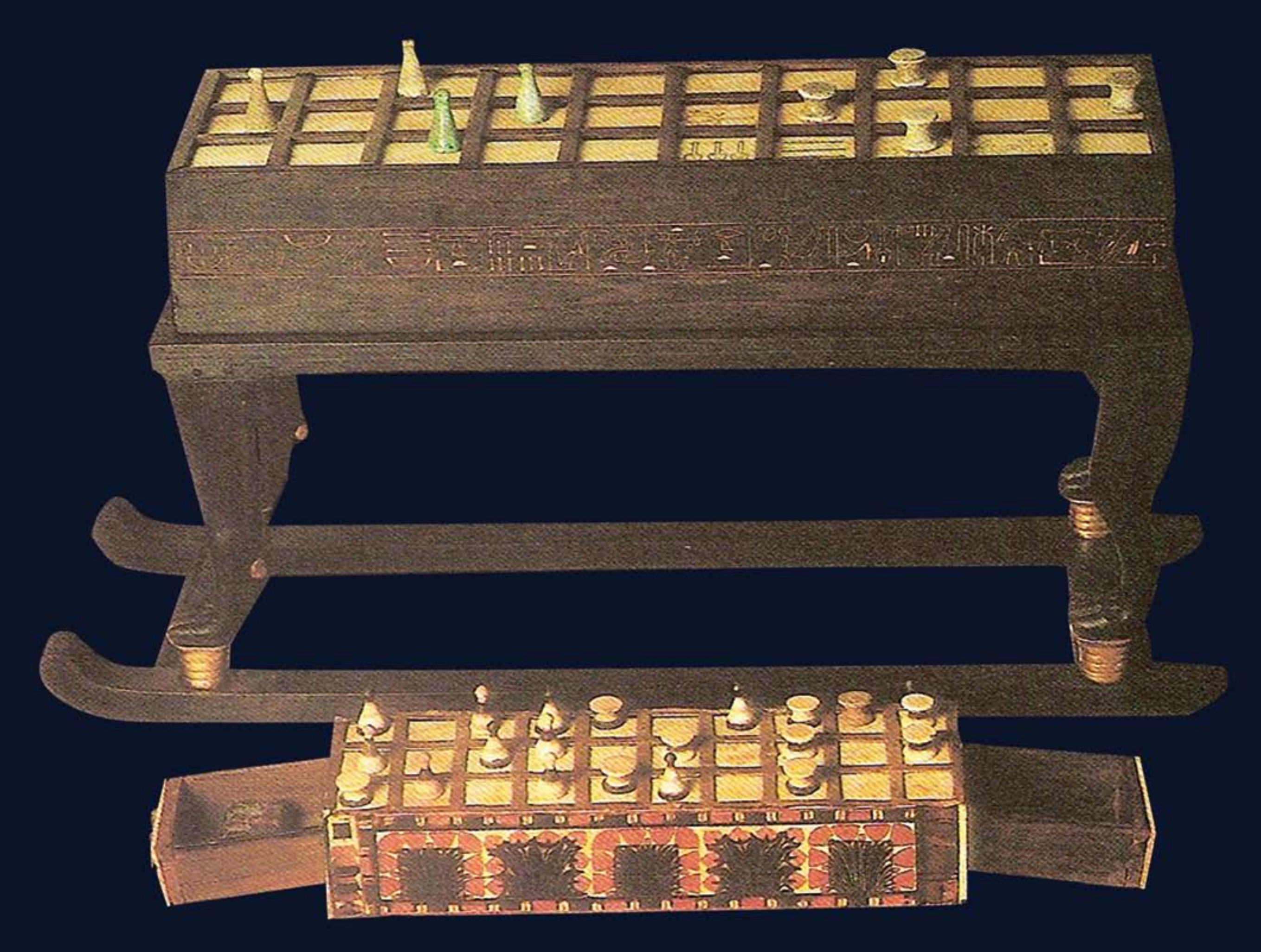




كان المصريُّ القديمُ بطَبعِهِ مُحِبًّا للطَّبيعةِ، حَريصًا على التَّنَزُّهِ، وكان المُوسرونَ منهم يَحرِصُونَ على تَزويدِ منازِلِهم بالحدائقِ المزروعةِ بالأشجارِ والأزهارِ، وبالطُّيورِ والحيواناتِ المُفضَّلةِ، والبركِ التي تَسبحُ فيها الأسماكُ، وكان مَنْ لا يملكُ أن يُزَوِّدَ منزلَهُ بكلِّ ذلك، يَحرِصُ من وقتٍ إلى آخرَ على اصطحابِ عائلتِهِ والخروجِ بها إلى الخلاءِ للتَّمتُّعِ ببهاءِ الحدائقِ، أو التَّنَزُّهِ على صفحةِ النِّيلِ، وممارسةِ صيدِ الأسماكِ بالشِّصوصِ والحِرابِ، وصَيدِ الطُّيورِ البحريَّةِ باستخدامِ عِصِيِّ الرِّمايَةِ الخَشبيَّةِ المُنحَنيَّة.



كان الصَّيدُ بمُختلفِ أنواعِهِ من أفضلِ وسائلِ قَضاءِ وقتِ الفَراغِ لَدَى المصريِّ القديمِ، الذي كانَ مُولعًا بصناعةِ الفِخاخِ لصيدِ الطُّيورِ والحيواناتِ البرِّيَّةِ، وصناعةِ نوعٍ من الشِّباكِ للإيقاعِ بالطُّيورِ المُهاجرةِ، وممارسةِ صَيدِ فَرسِ النَّهرِ والتَّماسيحِ بالحِرابِ. وكان الخُروجُ إلى الصَّحراءِ طَالبًا لصيدِ الغزلانِ والأيائلِ من المُتعِ المُحببَّةِ لَديه، كما كانَ صيدُ الحيواناتِ البرِّيَّةِ المُفترسةِ دَليلاً على ما يَتَحَلَّى به من قُوَّةٍ وشَجاعةٍ، فقد حَرصَ جميعُ مُلوكِ الفراعنةِ على نَقشِ صُورِهم وهم يَصطَادونَ الحيواناتِ المُفترسةَ على جِدرانِ المَعابدِ والمَقابرِ وعلى مُختلفِ قِطَعِ الأثَّاثِ.



مَارَسَ المصريُّ القديمُ في طفولتِهِ وشَبابِهِ العَديدَ من الرِّياضاتِ البَدنيَّةِ التي تَرَكَ لنا صورَها على جِدرانِ المقابرِ، والتي اعتَادَ أنْ يُقِيمَ لها المُبارياتِ، ويُقَدِّمَ للفائِزينَ فيها الجَوائزَ، فكانَ يُقيمُ المُسابقاتِ للمُصارعةِ، والرِّمايةِ بالسِّهامِ، وحَملِ الأثقالِ، والقَفزِ، وما يُشبِهُ المُلاكمةَ بشكلِها الذي نَعرفُهُ اليومَ، بالإضافةِ إلى إقامةِ المُبارياتِ بين الفتياتِ في ألعابِ الجُمبازِ واللِعبِ بالكُرةِ، وابتكارِ العديدِ من ألعابِ التَّسليةِ، كلُعبةِ "السِّنت" التي تُشبِهُ لُعبةَ "النِّردِ"، ولُعبةٍ أُخرى تُشبِهُ إلى حدٍّ بَعيدٍ لُعبةَ "الشَّطرنج".



عَرَفَ المصريُّ القديمُ الموسيقَى والغناءَ، ولَمَسَ قُدرةَ النَّغماتِ المُتَوافقةِ والكلماتِ المَنظومةِ والأصواتِ الجَميلةِ على التَّأثيرِ في النَّفسِ، وإشاعةِ جَوٍّ من الصَّفاءِ الشَّجيِّ، فأجادَ في ابتكارِ وصناعةِ آلاتِ الإيقاعِ وآلاتِ النَّفخِ والآلاتِ الوتريَّةِ التي كان الهَارْبُ في مُقدِّمَتِها، ولَجَأَ إلى الغناءِ في كلِّ الأحوالِ، في المنزلِ والحُقولِ والمعابدِ، في الأفراحِ والأعيادِ والجنائزِ، وكان الاشتِغالُ بالعزفِ والغناءِ من المِهنِ التي تُقَابَلُ بالكثيرِ من الاحترامِ والتَّقديرِ، وكانَ لكلِّ مَعبدٍ عَازِفوه ومُغنُّوه، الذين يقومونَ بِدورٍ أساسيٍّ في أداءِ الشَّعائرِ الدِّينيَّة.

كانتِ الأعيادُ والاحتفالاتُ العامَّةُ والخاصَّةُ والولائِمُ في مصرَ القديمةِ لا تَكتَملُ إلا بوجودِ فِرقِ العزفِ والغناءِ، وتُعَدُّ صورُ العازفاتِ والمُغنِّياتِ من أكثرِ المشاهدِ تَكرَارًا على جِدرانِ المقابرِ الفرعونيَّةِ. وإلى جانبِ الموسيقَى والغناءِ، عَرَفَ المصريُّ القديمُ فَنَّ التَّمثيلِ ومارسَهُ كطقسٍ دِينيٍّ في احتفالاتِ المعابدِ، التي كانت تُقَدِّمُ التَّمثيليَّاتِ المُرتبطةَ بالعَقيدةِ، كمعبدِ "حور" في "إدفو" الذي كان كثيرًا ما يُقَدِّمُ شكلاً تمثيليًّا طَقسيًّا للصِّراعِ الأبديِّ بين الخيرِ والشرِّ، أو الصِّراعِ بين "ست" و"حور".

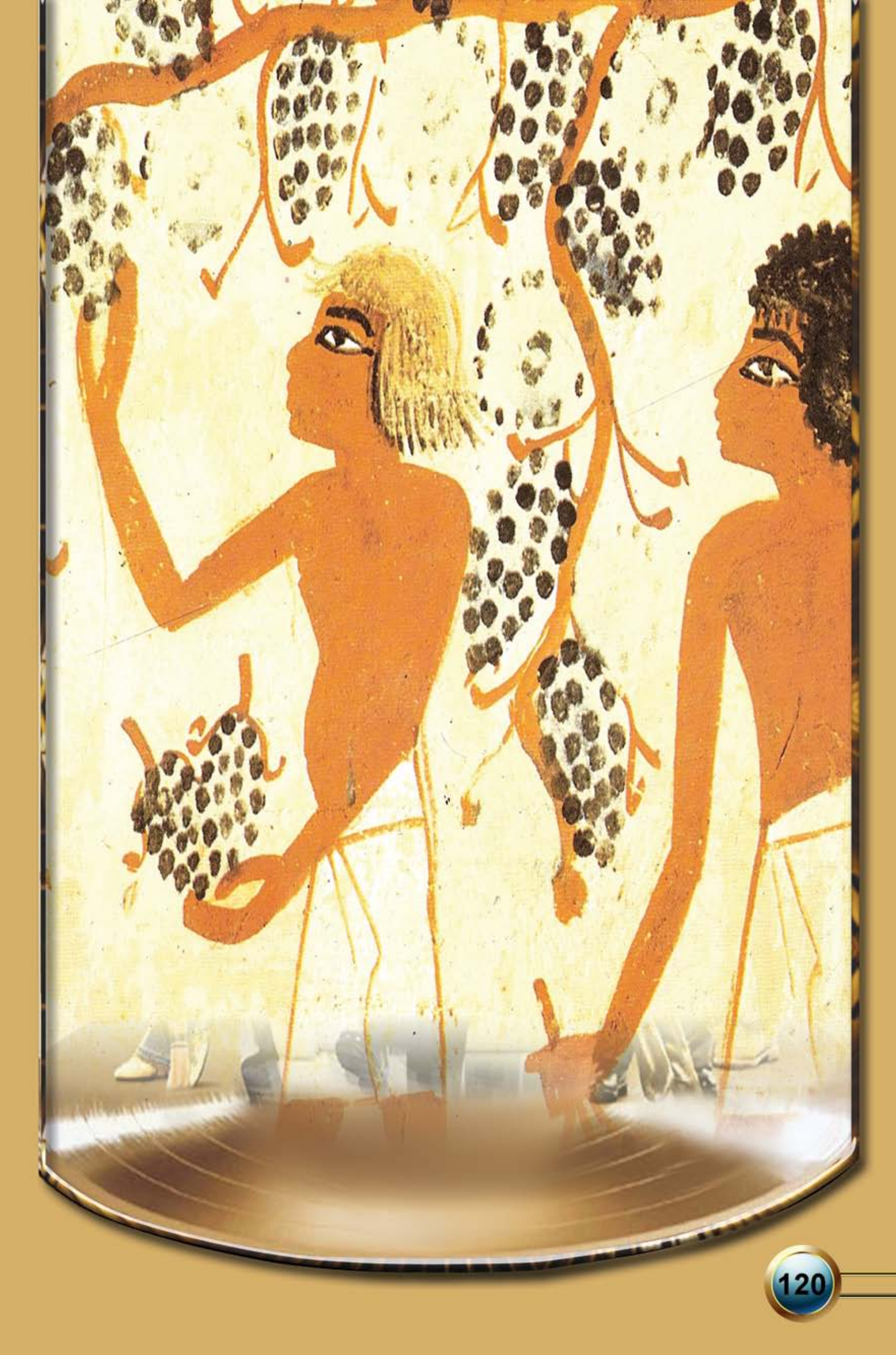




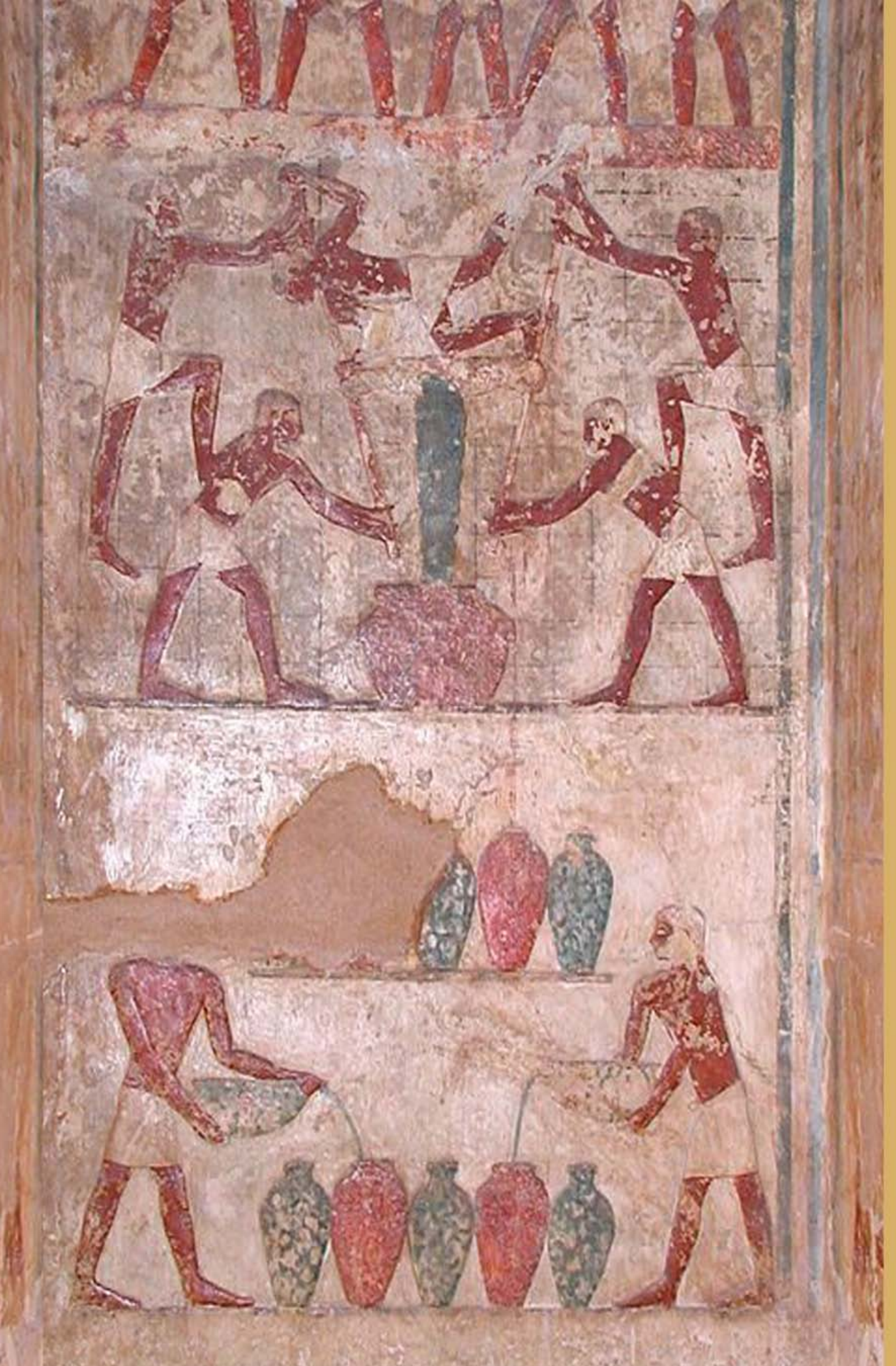
تُعَدُّ طَريقةُ التَّعاملِ معِ الحيواناتِ من أهمِّ المقاييسِ التي تُنبِؤُ بمدى ما وَصَلَ إليه مُجتمعٌ ما من تَحضُّرٍ، وإلى جانبِ العنايةِ الفائقةِ التي عاملَ بها الفلاحونَ حيواناتِهم، حيثُ كانتِ الثِّيرانُ تُنَظَّفُ بالمياهِ يوميًّا، والأبقارُ تُدَلَّلُ إلى حدٍّ تَشجيعِها على دَرِ ألبانِها بالغناءِ، أظهرَ المصريُّ القديمُ اهتمامًا وعطفًا عظيمينِ تجَاه ما كانَ يقومُ باقتنائِهِ من حيواناتٍ للحراسةِ أو للتَّسليةِ، إذ كانَ يمنَحُ لكلٍّ منها اسمًا، ويَعتَنِي بنظافتِها وتَزيينِها، ولا يَتَرَدَّدُ في استدعاءِ الطَّبيبِ البيطريِّ لعلاجِها، إذ كانَ من بين أطباءِ الفراعنةِ مَنْ تَخصَّصَ في علاجِ الحيواناتِ، ومَنْ وَضَعَ في فنونِ تَطبِيبِها المَخطُوطَات.



ضَمِنَتِ البيئةُ الثَّريَّةُ للمصريِّ القديـمِ وفـرةً وتَنوُّعًـا فيما يتناولُهُ من أطعمةٍ، فبالإضافةِ إلـى اللُحومِ والأسـماكِ التي كانَ يَسـتَهلِكُ منهـا كمِّيَّاتٍ كبيـرةً، أخرَجَت لـه الأرضُ الخضرواتِ والفاكهةَ والحُبوبَ والبُقـولَ التـي شَـكَلَّتَ مع اللُحومِ والألبانِ وعَسلِ النَّحلِ والشُّحومِ الحيوانيَّةِ والنَّباتيَّةِ مائدةً عامـرةً بمُختَلفِ أنواعِ الطَّعـامِ، حتى أنَّـهُ ابتكرَ من الخُبزِ الذي كانَ يُعَدُّ أسـاسُ التَّغذيـةِ لَدَيـه، والذي صَنعَه من الحِنطةِ والشِّعيرِ أكثرَ من أربعينَ نوعًـا، كما صَنَعَ من الحِنطةِ والشِّعيرِ أيضًا الفطائرَ والحلـوى بإضافـةِ الألبـانِ والتَّمرِ والعَسل.



صَنَعَ المصـــريُّ القديمُ الجُعَّةَ من الشِّعيرِ، كما صَنَعَ النَّبيذَ من ثمارِ العنـــبِ، وبَرَعَ في العديدِ من الصِّناعـاتِ الغذائيَّةِ التي وفَّرت لمائدتِهِ الغِنَى والتَّنوُّعَ، فقَامَ بتَجفيفِ اللُحومِ والأسماكِ، وتخزينِ الفائضِ منها بطريقةٍ صحِّيَّةٍ، لاســتخدامِها في وقتِ الحاجــةِ، كمــا قَــامَ بتَجفيفِ الفاكهــةِ، كالزِّبيــبِ والتِّيــنِ والبلــحِ، لتناوُلِهــا فــي غيرِ مواســمِ حصادِها. وكان لديه نَــوعٌ من ثمــارِ الفــولِ يقومُ بطَحنِـــه وعَجنِه، ثُم تَشــكيلِهِ على هيئـــةِ أقــراصٍ صغيرةٍ تُنضَجُ بالنَّارِ، أغلبُ الظَّنِّ أنَّها الشَّكلُ الأوَّلُ لـ"الطَّعميَّةِ" التي تَعرِفُها المائدةُ المصريَّةُ اليوم.





قد يكونُ من العَسيرِ علينا تَكوينُ صُورةٍ دَقيقةٍ لطَبيعةِ الشَّخصيَّةِ الفَرعونيَّةِ، غيرَ أنَّنا إذا ما نَظَرنَا إلى طَبيعةِ الشَّخصيَّةِ المصريَّةِ المُعاصرةِ، التي تَحمِلُ الكَثيرَ من سِماتُ الشَّخصيَّةِ المَصريَّةِ القَديمةِ، بفعلِ الإرثِ الثَّقافيِّ والاجتماعيِّ، وبتأثيرِ الكثيرِ من الظُّروفِ المَعِيشيَّةِ المُتشابهةِ التي شَكلَّت شَخصيةَ الأجدادِ في الماضِي، ولا تَزالُ سَائدةً حتى اليوم، لأدركنَا على الفورِ عِظَمَ تَأثيرِ النِّيلِ والحياةِ الزِّراعيَّةِ المُستقِرَّةِ على تلكَ الشَّخصيَّةِ، التي اتَّسَمَت بالتَّحفُّظِ والمُسالمةِ، والمَيلِ إلى الهُدوءِ والسَّكينةِ، وعَدمِ الرَّغبةِ في المُغامَرة.



كانَ للإيمانِ بالحياةِ الأُخرى، وبالتَّعرُّضِ فيها للعِقابِ أو الثَّوابِ على ما يَتِمُّ اقترافُهُ في الحياةِ الأُولَى أثرٌ كَبيرٌ في تَشكِيلِ الشَّخصيَّةِ المصريَّةِ التي اتَّسَمَت بالزُّهدِ في الحياةِ الدُّنيا، والاستهانةِ بكلِّ ما هو عارضٌ وزائلٌ، والاحتفاءِ بكلِّ ما هو أبديٌّ، وكلُّ ما له علاقةٌ بالعالمِ الآخرِ، الأمرُ الذي أثَّرَ بدورهِ على قواعدَ وآدابِ السِّلوكِ التي تَمَّ وَضْعُهَا وتَطبِيقُهَا بكلِّ حَزمٍ، فها هو الحَكيمُ الفرعونيُّ "بتاح حتب" وزير "الملك إسيسي" من الأسرةِ الخامسةِ يَنصَحُ أحدَ أبنائِهِ قائلاً: "لا يُدَاخِلُكَ الغُرورُ بسببِ المُلْكِ، ولا تَتَعَالَ لأنَّك رجلٌ عَالِمٌ".



لأنَّ التَّوسُّطَ كانَ السِّمةَ الحَاكمةَ في شَــخصيَّةِ المصريِّ القَديمِ، لــم يُحــرِّمْ تَنَــاوُلَ القَليلِ من المُسْكِرَاتِ بِغَرضِ التَّرويحِ عن النَّفسِ، لكنَّه كَـرِهَ التَّماديَ في الشَّرابِ والوصولِ به إلى حَالةِ التَّغييبِ وفُقدانِ التَّوازنِ، ونَظَرَ لمنْ يَقُومُ بهذا العملِ المُشــينِ نَظرةَ ازدِراءٍ، حيثُ يقولُ الحَكيمُ "آنــي" في ذلك: "لا تَستَســلمْ لِشــربِ الجُعَّــةِ، لأنَّــكَ عندما تَتَكَلَّــمُ، يَخرجُ مــن فَمِكِ عندئذٍ عَكسُ ما تَعْتَقدُ، بل وتَجهَلُ مَنْ الذي تَكَلَّمَ، وتَســقطُ لأنَّ سَاقيكَ تَتَداعيانِ تَحتَكَ، وعندئذٍ لا يأخذُ أحدٌ بيدكَ، والذين كانوا يَشرَبُونَ مَعــكَ، سَــيَنهَضونَ ويَقولُونَ: فلنَبتَعدْ عن هذا السِّكِّير!".

كانَ الاستقرارُ والتَّحَضُّرُ ونُموُّ الثَّقافةِ الاجتماعيَّةِ دَافِعًا لأن يَضْعَ المصريُّ القديمُ الكَثيرَ من قَواعدِ اللِياقةِ و"الإتيكيت"، فللوقوفِ أمامَ الفرعونِ مَراسيمُ غَايةٌ في التَّعقيدِ، وللاحتفالاتِ العامَّةِ قَواعدُ لا يمكنُ تَجاوُزُها، وللولائم نِظَامٌ مُتَّبعٌ تَجِبُ المُحافظةُ عليه، ولمُخاطبةِ من هُم أكبرُ عُمرًا ومَكانةً قَواعدُ لا يمكنُ إهمالُها، وفي ذلك يَنصَحُ أحدُ الحُكماءِ بقَولِه: "إذا دُعيتَ إلى حَضرةِ عظيمٍ، فلا تَجلسْ إلا إذا دَعَاك، وإذا دُعِيتَ إلى طَعامِهِ، فتَنَاولْ مِمَّا هو أمَامَكَ، ولا تَنظرْ إلى ما يأكلُهُ ذلك العظيمُ.. واضحكْ عندما يضَحَكُ، فإنَّ هذا يُبهِجُ قَلْبَه".



لــم يكنِ المُجتمــعُ الفَرعونـــيُّ مُتعَاليًا على الشُّعوبِ المُعاصرةِ له، والتي كثيرًا ما احتَفَى بما تُنتِجُهُ من سِلعٍ ومَزروعاتٍ لا تُوجدُ لَدَيه، وكثيرًا أيضًا ما اقتَنَى مَصنُوعاتِها المُمَيَّزةَ، التي اتَسَــمَت في عينيهِ بالغَرَابةِ والطَّرافةِ، غيــرَ أنَّه دائمًا مــا نَظَرَ إلى تلكَ الشُّــعوبِ نَظرةَ شَــكٍّ يملؤُهَا حِرصُهُ علــى منظومتِهِ الحضاريَّــةِ، وعلى ما تَراكَمَ لَدَيه من ثَقافاتٍ وأخلاقيَّاتٍ وقواعدَ سلوكيَّةٍ كان فَخورًا بها، ويَخشَــى عليها التَّأثُّرَ بعــاداتٍ وتقاليدَ أقلَّ تَحضُّرًا، وأكثــرَ انتماءًا لِعُهــودٍ كان يَرَاهَا بدائيَّةً، وبيئاتٍ كان يَظُنُّها بَربَريَّةً.

أهم المراجع

- سليم حسن – مصر القديمة – ١٧ جزءًا – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٤م.
- عبد العزيز صالح - الأسرة المصرية في عصورها القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.
- رمضان عبده على – حضارة مصر القديمة – المجلس الأعلى للآثار – ٢٠٠٤م.
- رمضان عبده على – رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة – ٤ أجزاء – المجلس الأعلى للآثار – ٢٠٠٨م.
- دومنيك فالبيل – الناس والحياة في مصر القديمة – ت. ماهر جويجاتي – دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - ٢٠٠١م.
- تحفة أحمد حندوسة – الزواج والطلاق في مصر القديمة – المجلس الأعلى للآثار – ١٩٩٨م.
- فوزي مكاوي - الناس في مصر القديمة – المجلس الأعلى للآثار – ١٩٩٥م.
- أحمد بدوي، ومحمد جمال الدين مختار – تاريخ التربية والتعليم في مصر، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤م.
- ألن شورتر – الحياة اليومية في مصر القديمة – ترجمة نجيب ميخائيل، ومحرم كمال – مكتبة الأنجلو المصرية – ١٩٥٦م.
- هشام الجبالي – الفن المصري القديم – دار الهدى للنشر والتوزيع – ٢٠٠٨م.
- كريستيان ديروش نوبلكور – المرأة الفرعونية – ترجمة فاطمة عبد الله محمود – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٥م.
- نيقولا جريمال – تاريخ مصر القديمة – ترجمة ماهر جويجاني – دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع – ١٩٩٣م.

- أدولف إرمان – ديانة مصر القديمة – ترجمة عبد المنعم أبو بكر، ومحمد أنور شكري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٧م.
- تريجر، وآخرون – مصر القديمة والتاريخ الاجتماعي – المجلس الأعلى للثقافة، مصر – ٢٠٠٠م.
- عبد العزيز صالح – حضارة مصر القديمة وآثارها – مكتبة الأنجلو المصرية – الجزء الأول – ١٩٦٢م.
- محرم كمال – الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٨م.
- ألفريد لوكاس – المواد والصناعات عند قدماء المصريين – ترجمة زكي اسكندر، ومحمد زكريا غنيم – مكتبة مدبولي – ١٩٩١م.
- محمد عبد المحسن بسيوني – آداب السلوك عند المصريين القدماء – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٤م.
- نجيب ميخائيل إبراهيم – مصر والشرق الأدنى القديم – دار المعارف – ١٩٦٢م.
- والتر امري – مصر وبلاد النوبة – ترجمة تحفة حندوسة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٠م.
- جونيفييف هوسون ، ودومنيك فالبيل – الدولة والمؤسسات في مصر – ترجمة فوائد الدهان – دار الفكر – ١٩٩٥م.
- محمود السقا – فلسفة وتاريخ النظم الاجتماعية والقانونية – دار النهضة العربية – ١٩٧٥م.





الحياة الاجتماعية
في مصر القديمة
أسَّسَ المصريونَ القدماءُ عبرَ تاريخِهم الطَّويلِ منظومةً متكاملةً للأعرافِ والتَّقاليدِ والقيمِ والأخلاقيَّاتِ التي أثبتَتِ التَّجارِبُ نجاحَهَا، وجدارَتَها بالاتِّباعِ والحفظِ. وإن كَانَ الكثيرُ من الخبراتِ الحياتيَّةِ والمقوِّماتِ الثَّقافيَّةِ، فضلاً عن الكثيرِ من الألفاظِ الفرعونيَّةِ لا يزالُ باقيًا في مصرَ إلى اليومِ، فإنَّ الكثير أيضًا من منجزاتِ الحضارةِ الفرعونيَّةِ قد تسرَّبَ في شرايينِ الحضاراتِ الإنسانيَّةِ التَّاليةِ، لِتبقَى آثارُهُ جليَّةً في كافَّةِ مُنجزاتِ مدنيَّاتِ العالمِ المُعاصر.
إنَّ الإبحارَ بين ضَفَّتَي الوثائق التَّاريخَيَّةِ الكاشفةِ عن حقيقةِ "الحياةِ الاجتماعيَّةِ في مصرَ القديمةِ"، كفيلٌ بأَنْ يجعَلَنا نميلُ إلى التَّأكيدِ على أنَّ جذورَ ما يسيرُ عليه العالمُ اليومَ من تقاليد وأعرافٍ اجتماعيَّةِ، لا تزالُ دفينةَ التُّربةِ المصريَّةِ، تَنتَظِرُ مَنْ يَكشِفُ عنها، ويُخْضِعُها للتَّدقيقِ والفحصِ، ويدفَعُنا إلى الإقرارِ – دونَ شُبهَةِ تَحيُّزٍ أو إطلاقِ لأحكامٍ مُسبقةٍ – بأنَّ الفضلَ في ترسيخِ تقاليدَ وقيمِ مجتمعاتِنا المعاصرةِ، إنَّما يرجعُ في حقيقتِهِ إلى الحضارةِ المصريَّةِ القديمةِ، أكثرُ مِمَّا يَرجِعُ إلى كلِّ المؤثِّراتِ التَّاليةِ لها.
هشام الجبالي
دار الهدى
للنشر والتوزيع